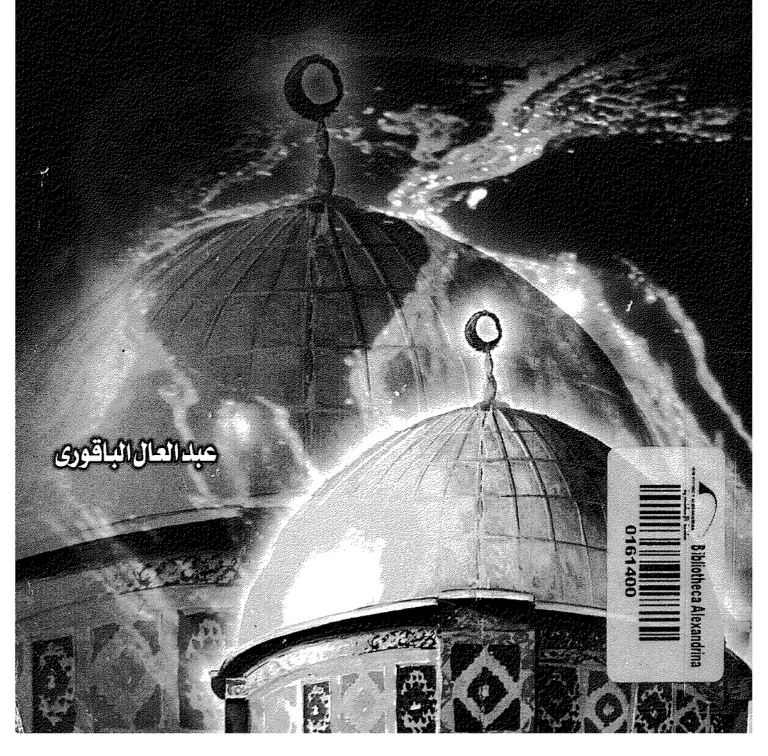
صفحات من تاريخ الحروب الصليبية

(١)

سقوط القدس



عبد العال الباقورى

سقوط القدس

"صفحات من تاريخ الحروب الصليبية"

الجزء الأول

سقوط القدس

المؤلف

عبد العال الباقورى

الغلاف للفنان

محمد الحديدى

الإخراج الفنى

وائل طلعت

التجهيزات الفنية

دار الهدى

المراجعة اللغوية

محمد ربيع

الطبعة الأولى

١٩٩٧

رقم الإيداع: ٩٧/٥٣٢٠

الترقيم الدولى:

I.S.B.N. 977-5822 - 04 - 1



دار الهدى للنشر والتوزيع

٦ ش المجرى - شاهين - المنيا

ت ٠٨٦ / ٣٤٦٧١٣

"كان هناك الكثير من الشجاعة والقليل من الشرف".

"الكثير من الغيرة، والقليل من الفهم".

"مُثّلَ عليا لطختها القوة والجشع، والعمل والصبر لطخهما ورع ضيق الأفق".

"ولم تَكُن الحرب المقدسة نفسها أكثر من فصل طويل".

"من التعصب باسم الرب، والتعصب خطيئة ضد روح القدس".

ستيفن رنسيمان

مؤرخ بريطاني

مقدمة

■ الحروب الصليبية. لماذا ؟

فى سبتمبر (أيلول) ١٩٦٧، عام الهزيمة العربية الكبيرة، احتفل الصهاينة بمرور سبعين عاماً على المؤتمر الصهيونى الأول، الذى عقد فى مدينة "بال" السويسرية عام ١٨٩٧. وعقد الحفل التذكارى فى نفس القاعة التى شهدت انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول.

ودعى الجنرال اسحق رابين ـ قائد عدوان ١٩٦٧ ورئيس وزراء إسرائيل فيما بعد ـ دعى إلى الحديث فى هذا الحفل التذكارى.

أثار رابين دهشة الحاضرين عندما قال قرب نهاية خطابه:

"إن أعظم خطر يهدد إسرائيل هو انكماش الهجرة إليها تماماً كما تدهورت دولة الصليبيين عندما افتقرت إلى دماء جديدة".

إن "نهاية" الحروب الصليبية تمثل للصهيونية "مستقبلها"، وهى ـ على ألسنة كثير من مفكريها ـ تتوقع هذا، وتحاول أن تتجنبه.

لا يعنى هذا أن "الدولةَ الصُهيونيةَ" صُورةٌ طبق الأصلِ من "المملكة الصليبية" التى قامت فى نفس المكان فى العصور الوسطى، وبَقِيتْ حوالى قرنين.

ولكن أوجه التشابهِ كثيرة.. وأوجه الخلاف أيضاً. فهناك ظروف مختلفة ومتغيرة، وفرق كبير بين ظروف وأوضاع عالم القرون الوسطى وبين ظروف وأوضاع عالم النصف الثانى من القرن العشرين.

ومع ذلك، يقارن الكاتب الصُهيونى يورى افنيرى بين البابا "أيربان الثانى" حامل لواء الدعوة إلى الحروب الصليبية، و"هيرتزل" حامل لواء الدعوة الصُهيونيةِ وإنشاء "الدولة العِبْرِيةِ"، كما يقارن بين "مؤتمر بال" و"مجمع كليرمونت" الذى

انطلقت منه شرارة الحروب الصليبية، وبين بن جوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل و"بالدوين الأول" أول ملك لمملكة بيت المقدس الصليبية.

ويقول هذا الكاتب الصهيونى: إن أوجه التَشابه عَديدةٌ.. ثم يحاول أن يؤكِّدَ أن أوجه الاختلاف بين الدولة العِبريةِ والدولة الصليبية كثيرة وعميقةٌ. وكأنه يحاول أن يقول أن إسرائيل يمكن ألا تلقى مصير الدولة الصليبية نفسه.

ومرةً أخرى، وليست أخيرة: إن المُقارنةَ الآلية بين الماضى والحاضر غير صحيحة، والتاريخ لا يكرر نفسه بشكل آلىٍّ أو غبىٍّ.

ومع ذلك، يَعترفُ افنيرى:

"لقد حَكَمتْ مملكة الصليبيين فى القُدسِ على نفسها بالدمار، عندما اعتمدت كُليةً على تنظيمها العسكرى المُتفوِّق وشجاعتها. إن العمليات العسكرية الباهرة التى حَملتْ الصليبيين إلى قلب مصر تُخفى وراءها المشاكل الحقيقية التى حـدَّدتْ مَصيرَهم فى النهاية. هذه المشاكل مازالت قائمةً اليوم بالنسبة لإسرائيل..".

ماذا يعنى هذا ؟

يعنى أن قراءة الحروب الصليبية بِدقَةٍ عملية مفيدة فى هذا الوقت بالذات، إنها تُساعدُ فى إحياء الأمل الكامن والعظيم، كما تساعدُ فى اقتلاع جذور اليأس الثِّقيل.

إن انقسامات وخلافات "العرب" اليوم ـ وأمس القريب ـ فى مُواجَهةِ إسرائيل أقلُّ حِدة بكثيرٍ جداً من انقسامات وخلافات العرب ـ المسلمين ـ فى مواجهة العدوان الأوربىِّ الذى وصِفَ بالصليبىِّ.

يقول المؤرخ العظيم ستفين رنسيمان:

"إن سياسات العالم الإسلامىِّ فى أوائل القرن الثانى عشر كانت بَعيدةً عن أى تفكير سليم".

دخل الصليبيون القُدسَ فى ١٠٩٩.. وحتى١١٤٣ كانوا يُحاولون تثبيت دعائم دولتهم. وانقسام العالم الإسلامىِّ أتاح للصليبيين الاستقرار فى المنطقة التى استعمروها.. ولم ينجح الصليبيون بسبب قوتهم، ولكن بسبب ضعف القُوَى الإسلامية، وتفكُكِها وانقسامها، وانشغالها بالحروب ضِدًّ بعضها البعض.

ولو أن المسلمين فى منطقة "الشرق الأوسط".. أو على الأقل فى العراق والشام ومصر، أقاموا جَبهةً مُتحدةً، لنجحوا فى القضاء على الجماعات الصليبية فى بلاد الشام، وتطهير الوطن العربى منها قبل أن تقوى وتَتدعَّمَ.

فى ذلك الوقت، وعندما جاء الصليبيون كانت بلاد الشام تَعومُ فى بَحرٍ من الفَوضَى.

كان الخلاف عَميقاً بين دولة السلاجقة التى تحكم إيران والعراق وتركيا، وهى دولة "سنية"، وبين الفاطميين حكام مصر وهم "شِيعَةٌ".

وكانت هناك حروب بين السلاجقة وبعضهم.. كانت اتجاهاتهم مُتنَافرةً، وأهدافهم مُتضَارِبة، ومواردهم المالية مبددة.

وكانت "الخلافة العباسية" فى لحظات الاحتضار، اسماً بدون مُسمًّى.. ومجرد شكل.

وفى مصر، احتفظ الفاطميون بجيشهم داخل البلاد.. وأحياناً بعثوا بقوّاتٍ قَليلةٍ. ولم يُعَبِّئوا قوة البلاد، رَغم أنه لم تكن تَنقصُهم الإمكانيات.

أكثر من هذا، حاول الفاطميون أن يتحالفوا مع الصليبيين ضِدَّ السلاجقة، على أمل أن يمنع ذلك الصليبيين من الزَحفِ على الأملاك الفاطمية فى الشام.

وبدورهم، حاول الصليبيون استغلال هذا الانقسام العَربىّ ـ الإسلامىّ والاستفادة منه.. فتحالفوا مع بعض الأمراء، وعملوا على عَزلِ الشام، وعملوا لإبعاد القاهرة عن دمشق.

واحتاج العالم العَربىُّ ـ الإسلامىُّ إلى حوالى خمسين سنة كى يفيق، ويتَّحِدَ، ويُعبِّئَ قوتَه، ويتقدَّمَ لتحرير أرضه.

وفى عام ١١٤٤ أسقط عماد الدين زنكى إمارة "الرَّها" الصليبية التى كانت تفصل بين الشام والعراق.. وكانت هذه بِدايةَ النهاية، جاء نور الدين محمود ليوَجِّهَ نظره من دمشق إلى القاهرة، حيث كان الحُكْمُ الفاطمىُّ يدخل مرحلة الاحتضار.

وحينما حاول الوزير الفاطمىُّ شاور أن يتحالف مع الصليبيين لكى يستعيد كُرسىَّ الوزارة ويحافظ عليه، كان يَفتحُ أبواب القاهرة أمام صلاح الدين، الذى حمل من القاهرة اللواء العربىَّ ـ الإسلامىَّ لتحرير القدس.. كانت هذه بداية التحرير.. مجرد بداية فقط على طَريقٍ امتدَّ طويلاً.. ووضع نِهايةً لواحدةٍ من أهمِّ الحروب فى تاريخ البشرية بصفةٍ عامةٍ، وفى تاريخ العصور الوسطى بصفة خاصة.

وقد استغرقت الحروب الصليبية حوالى قرنين، وتَضَمنتْ عِدةَ حَملاتٍ اتَّفقَ المؤرخون على حصرها فى ثمانى حَملاتٍ، مع أن عددها أكثر من هذا.

وعلى أىِّ حَالٍ، لقد نَجحَ العرب ـ المسلمون فى القضاء على المملكة الصليبية وتحرير الأرض العربية، لأنهم لم يتركوا هذه الدولة تَعيشُ يوماً واحداً فى سَلامٍ حَقيقىٍّ.. وخاضت ثمانية أجيالٍ مُتتاليةٍ معارك لم تَنقطعْ ولم تَتوقَّفْ، ولم يعرف الصليبيون ـ والكلام هنا لافنيرى الصُهيونى ـ طوال مائةٍ واثنين وتسعين عاماً يوماً واحداً من السلام الحَقيقىِّ، رغم ما كان هناك من اتفاقيات هُدنةٍ وإيقاف إطلاق نار (وهذه الحالة تنطبق تماماً على إسرائيل)".. ورغم ما كان هناك من ضعفٍ وخيانةٍ من جانب بعض الحكام العرب ـ المسلمين أمثال معين الدين أنر و شاور وغيرهما.. "وهؤلاء سنقرأ حكاياتهم ونَتتبَّعُ أعمالهم فى الاستعانة بالعَدوِّ، والتحالف معه ضِدَّ إخوانهم العرب المسلمين.

كما سنقرأ ونَتتبَّعُ صَفحاتٍ أخرى.. صفحات مجد وبطولة سَجَّلَها مُناضلون عرب آمنوا - كصلاح الدين الأيوبى - بدور العمل العَربىِّ المُشتركِ.. ونقرأ أيضا نِضالَ الجماهير العادية البَسيطةِ دِفاعاً عن أوطانها ومُقدساتِها، فقد انقلبت الجَمَاهيرُ ضِدَّ شاور حينما اكتشفت خيانته، وذهبت إلى الخليفة العَباسىِّ تدعوه إلى النضال يوم رأته مُتقاعساً، وكانت هى التى دَفَعتْ تكاليف الحرب التى استمرَّتْ قرنين.

والحروب الصليبية قصةٌ طويلةٌ، إنها قصة قرنين كاملين وأكثر، وهى مَليئةٌ بالأحداث والشخصيات والوقائع والمعارك.

وفى كل حدث، ووراء كل شخصية.. درس وعبرة.

ولن نستطيع هنا أن نَتتبَّعَ كل هذا، ونَرويه.

ولكن نكتفى من القِلادةِ بما يحيط بالعنق: فنَتتبَّعُ الأحداث والوقائع والشخصيات التى تؤكِّدُ لنا حقيقة أن قوة العرب فى وحدتهم.. وأن ضعفهم من انقسامهم.

هذه عِبرةُ الماضى..

وخِبرةُ الحاضر..

ودرس المستقبل.. الذى أثق أن الناشئة العربية ستعيه جيدا.. وتتعلمه، وتطبقه.. فتُحقِّقُ النصر، اليوم، أو غدا، وبالتأكيد بعد غدا.. وليس غد ببَعيدٍ.

عبد العال الباقورى

هل كان البابا أيربان الثانى يَعرفُ وهو يَتَحدَّثُ فى "مجمع كلير مونت" فى فرنسا أنه يُلقِى واحدا من أكثر الخطب تأثيراً فى التاريخ ؟

هل دار بذهنه وهو ينطِقُ باسم الربّ أن كلماته ستُشعلُ حَرباً تدوم قرنين وتَقتلُ مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، وتُدمِّر بيوتاً، وأحياء ومدناً، وتَنشرُ الخَرابَ والدمار فى مِساحاتٍ واسعةٍ من الأرض ؟

هل كان يتصور أن دَعوتَه إلى ما أسماه "إنقاذ بيت المقدس" ستؤدى إلى قتل ١٠٠ ألف من المسلمين على يد الصليبيين فى زَحفِهم من أوربا إلى فلسطين، أو يتَصورُ أن استعادة بيت المقدس سَتَتمُّ بِمَذبحةٍ يُقتل فيها حوالى ٧٠ ألفاً من البشر؟

ربما يكون شئ من هذا ـ أو بعضه ـ قد خَطَرَ بذهن البابا.. وقد لا يكون. ولكن كلماته كانت صورة حية من "التَعصُّبِ الوحشّى" فتحت الباب لحركة استعمارية من جانب الغرب للوطن العربى.

لم تَعرفْ العصور الوسطى مثيلاً "للحركة الصليبية" وهى تتَّخِذُ الدين ستار لأطماعها وأهدافها الحقيقية، وهى أطماع استعمارية، نبتت ونشأت نتيجة للأوضاع والظروف الاقتصادية والاجتماعية والدينية التى كانت تَسود أوربا الغربية فى القرن الحادى عشر، حيث يبدأ المؤرخون عَادةً الحديث عن الحروب الصليبية ابتداء من عام ١٠٩٥ حينما ألقَى أيربان الثانى خطابه فى كلير مونت، ويقفون بها عند حدود عام ١٢٩١، عام سُقوطِ عكا من يد الصليبيين.

ولكن هذه الحروب كانت لها مُقدماتٌ سَبقتْ عام ١٠٩٥، وكانت لها ذيولٌ امتدَّتْ إلى ما بعد عام ١٢٩١، إذ شَهدَ القرن الرابع عشر الميلادى حَملاتٍ صَليبيةً أخرى مثل "حملة بطرس لوزجنان" ملك قبرص على الإسكندرية عام ١٣٦٥.

ومع ذلك، اعتاد المؤرخون أن يقفوا بعدد الحملات الصليبية عند ثماني حملات رئيسية حملت كل منها رقماً معيناً، وهذه الحملات هي:

الحملة الأولى بَدأتْ في ١٠٩٦ وكان هدفها فلسطين.

الحملة الثانية بَدأتْ في ١١٤٥ وكان هدفها فلسطين.

الحملة الثالثة بَدأتْ في ١١٩٠ وكان هدفها فلسطين.

الحملة الرابعة بَدأتْ في ١٢٠١ وكانت القسطنطينية هدفها.

الحملة الخامسة بَدأتْ في ١٢١٨ وكانت مصر هدفها.

الحملة السادسة بَدأتْ في ١٢٢٨ وكان هدفها فلسطين.

الحملة السابعة بَدأتْ في ١٢٤٨ وكانت مصر هدفها.

الحملة الثامنة بَدأتْ في ١٣٦٥ وكانت مصر هدفها.

ولقد تتابعت الحملات وتداخلت من ناحية، كما كانت كل واحدة منها تَضمُّ أكثر من حَملةٍ فَرعيةٍ من ناحية أخرى، والحملة الواحدة كان لها أكثر من قائد وزعيم، كل واحد منهم كانت له أهدافه الخاصة، كما كانت تحركه بواعث مُعينةٌ، حتى نداء البابا أيربان نفسه بتخليص قبر المسيح من يد المسلمين، لم يكن من أجل الرَبّ أو المسيح فقط.

■ هل كانت حقا صليبية ؟

حقَّقتْ الحملة الصليبية الأولى نَجاحَها الأكبر عندما دخل الصليبيون القُدسَ يوم ١٥ يوليو (تموز) ١٠٩٩، عبر بحيرة من الدم، غاصت فيها أقدامهم وهُمْ يدخلون الكنيسة!! وتوَّجتْ الحملة نجاحها بإقامة مملكة "صليبية" غربية في قلب أرض المشرق.

ومنذ ذلك اليوم، وحتى اليوم والغد، لا يزال السؤال يتردَّدُ: هل كانت حقًا حروباً صَليبيةٌ؟ هل كانت من أجل الله وفي سبيله؟ ومن أجل المسيح وإنقاذ قبره؟

وحماية الحجاج المسيحيين إلى هذا القبر المُقدَّس ؟

لو كانت كذلك، فلماذا ارتَكَبتْ ما ارتكبته من مذابح وقتل وجرائم ليس ضِدَّ المسلمين فقط، بل ضِدَّ المسيحيين أيضاً، المسيحيين الوطنيين والمسيحيين غير الكاثوليك ؟

أكثر من هذا، لماذا تقاتل الصليبيون فيما بينهم، ولماذا تنافس أمراؤهم على الفوز بهذه الإمارة أو تلك ؟

أسئلة كثيرة، ووقائع عديدة تؤكِّدُ أن الصليب الذى رفعوه بأيديهم، ورسموه على كتوفهم، وتَحدثتْ به ألسنتهم لم يكن غير ستار، وكان الهدف الحقيقىُّ مَطامعَ فردية وجماعية فى هذه المنطقة من العالم، مطامع فى التجارة والأرض، مطامع فى الإمارة والمُلك.

كانت هذه الحروب ـ فى جَانبٍ منها ـ انعكاسا لتقليد من تقاليد المجتمع الأوربىِّ فى العصور الوسطى، حيث كانت الحروب الأوربية بين الممالك وبعضها، وفيما بين الإمارات المختلفة، كانت صراعاً طويلاً، ومستمراً.

وأرادت أوربا أن توِّجه حروبها الداخلية وجهة أُخْرَى، وأن تنقلها إلى خارج الأراضى الأوربية، وبعيداً.. هناك فى الشرق!

وزعم الأوربيون لأنفسهم مزاعم عديدة ومختلفة حول فلسطين، فادَّعَوا أنها أرض بلا شعب. وهو نفس الزعم الذى روَّجَه الصهاينة واختلقوه. وجاء أمراء غرب أوربا يبحثون لأنفسهم عن مكان لإمارة أو مملكة فى هذه الأرض التى بلا شعب.

وعندما وجدوا شعبها فوقها، لم يتوانوا فى طرده، وإخراجه منها، بدأوا بطرد المسلمين، ثم طردوا المسيحيين الوطنيين، كما طردوا قساوستهم ورهبانهم حتى يخلو لهم وجه فلسطين.

وانتزع الصليبيون لأنفسهم ـ كما يَشهدُ بذلك الوزير البريطانىُّ "أنتونى ناتنج" ـ كل ياردة مربعة من الأرض، وطردوا الفلاحين من أهل البلاد وأجبروا النساء العرب على الزواج المُختَلَطِ، وعلى الخُرُوجِ عن دينهن!

وهل فعل الصهاينة غير ذلك فى فلسطين؟!

ولقد ارتكب الصليبيون ما ارتكبوه ضِدَّ المسلمين والمسيحيين على حدٍّ سواء. بل كانوا فى بعض الأحيان أكثر شدة فى معاملتهم للمسيحيين الوطنيين من معاملتهم للمسلمين.

فقد اغتاظ الصليبيون حينما وجدوا قدراً كبيراً من الاختلاط والمعايشة والمعاشرة بين المسلمين والمسيحيين، كما وجدوا وحدة فى العادات والتقاليد بينهم رغم اختلاف الدين. لذلك أظهروا لهم العَداوةَ، وَالكراهية، لأشخاصهم، وسلوكهم، ولمذاهبهم الدينية التى اعتبروها "هرطقة" وخروجا عن "مسيحيتهم الأوربية".

فى إنطاكية، أنكر الصليبيون حُقوقَ البطريرك يوحنا.

وفى القدس، استولى الصليبيون على الأديرة، والكنائس، وتُبعثَر المسيحيون الوطنيون فى شتى بلاد فلسطين وشرق الأردن. وتمَّ استبعاد القسس الأرثوذكس من المدينة التى تحوى "مذبحا" لكل الطوائف المسيحية الشرقية.

ولقد أدرك الإمبراطور البيزنطىُّ الذى كان استنجاده بالغرب سبباً من أسباب خروج الحروب الصليبية ،أدرك بعد وقت غير طويل أنه لخير للمسيحيين فى فلسطين أن يعيشوا فى ظل التَسامُحِ الفاطمىِّ، لا فى ظِلِّ التَسامُحَ الصَليبىِّ ـ الأوروبىِّ!

وعلى يد البطريرك "أرنولف مالكورن" الذى اختاره الصليبيون فى القُدسِ، تم إعطاء الكُرسىِّ الأرثوذكسىِّ طابعاً كاثوليكياً لاتينياً، واضطر البطريرك الأرثوذكسى إلى مغادرة مدينته، وذهب يقيم فى القسطنطينية أو حتى تحت حماية

خلفاء الفاطميين فى مصر ـ! يضاف إلى ذلك، الخلاف والصراع بين الصليبيين والبيزنطيين، وهو من أهم العوامل التى عاقت تَقَدُّمَ الصليبيين، وأسرعت بنهايتهم.

هذا قليل من كثير مما فعله الصليبيون بالمسيحيين الوطنيين، وهو يكفى لأن يصرخ المرءُ: أيها الصليب كم من الجرائم تُرتَكَبُ باسمك!

ولا يعنى ذلك إسقاط كل طابع دينىٍّ عن هذه الحروب، رغم إيماننا بأنه فى جميع العصور، حاول جميع المحاربيين ستر أهدافهم الحقيقية برمز اخترعوه أو صنعوه. ولا يوجد فى التاريخ كُلِّه محارب اعترف بأهدافه الحقيقية، وأعلنها صريحة.

وكان الدِّينُ فى العصور الوسطى هو السائد فى أوربا، ولم يكن عسيراً على الأوربيين أن يرفعوا رايته فى عدوانهم على الوطن العربى، ليتخذوه غطاء وستار لأهدافهم الحقيقية.

ويتأكد هذا من أصناف الناس الذين اشتركوا فى هذه الحروب، فقد كان بين هؤلاء القادمين ـ على رواية المؤرخين المعاصرين من الغربيين ـ القاتل واللصُّ وقاطع الطريق والمجرم والقرصان والسكِّيرُ واللاَّعبُ والرَّاهبُ والراهبة والرَّجُلُ والمرأة والطفل والعاهرة والمحكوم عليه بالإعدام والملك والأمير والفلاَّحُ والتاجر والنبيل والغنىُّ والفقير... وباختلافهم اختلفت الغايات والأطماع، من دينية خالصة إلى مادية بحتة، والأخيرة هى التى غلبت متسترة بالأولى. وقد كان هناك من جاء يفتِّشُ عن أميرة شرقية غنية يتزوجها، كما يقول الدكتور "نقولا زيادة" وهو مسيحىٌّ عربىٌّ.

لقد اختلط الحابل بالنابل فى صفوف الذين خرجوا يرفعون الصليب، ويزعمون أنهم يقاتلون من أجله.

وخرج أمثال "بلدوين بوهيمند وتانكرد" وغيرهم يشاركون فى هذه الحروب لأنها تمنحهم الفرصة لإقامة إمارات لهم فى الشَّرقِ، بعد أن ضاقت أوروبا عن

توفير إمارات لهم، ولم تكن أرضها كافية لتلبية حاجات الأمراء إلى إمارات جديدة.

وإذا كان الأمراء قد خرجوا يبحثون عن إمارات، وخرج الفرسان بحثاً عن مكان لأداء مهامّهم المقدسة، فإن الفقراء خرجوا من أوربا هاربين بحثاً عن لقمة العيش، التى تعذّرَ عليهم الحصول عليها فى أوطانهم.

وكان معظمهم من "الأقنان" أو عبيد الأرض، الذين كان الأمير الإقطاعى يملكهم ويتصرَّفُ فيهم كما يتصرَّفُ فى أىِّ عقار أو متاع فوق أرضه. وكان هذا العبد محروماً من أبسط حقوقه الشخصية، فليس من حقه أن يفرَّ أو يهرب من أرض سيده.

وكان طبيعياً أن يجد هذا العبد فى الحروب الصليبية خلاصاً له من عبوديته، فالموت ينقذه من آلامه وعذابه، والحياة فى الأرض المقدسة لن تكون أسوأ بأىِّ حال من حياته فى أوروبا. وكان رَفْعُ شعار الصليب والتضحية من أجله يمثل إنقاذا لهؤلاء من أزمتهم.

وكان هؤلاء هم الغالبية العظمى من سكان أوربا فى ذلك الحين، أى فى بداية الحروب الصليبية.

وفى ذلك الوقت، كان الصراع ساخناً وحاد بين الباباوات والأباطرة، بين الكنيسة والدولة. ووجد البابا فى إشعال هذه الحروب وسيلة لتدعيم سلطاته.

وكان البابا "جريجوريوس السابع" يؤمن بأن على الملوك الكاثوليك الخضوع لسلطة البابا. ويرى فى التفكير بتوجيه الملوك إلى قتال الشرق وسيلة لإخضاعهم لكلمة الرَّبِّ التى يمثلها وينطق بها.

ولذلك دعا البابا جريجورويس السابع حوالى عام ١٠٧٥ وقبل نحو ٢٠ عاماً من دعوة البابا أيربان الثانى، دعا إلى توجيه حملة لإنقاذ المسيحيين فى الشرق. وهى الدعوة التى ورثها عنه أيربان وسار بها خطوات إلى الأمام، فأخرج جحافل أوربا بعبيدها وملوكها وأمرائها وهم خاضعون لسلطانه! فضلاً عن رغبة

الكنيسة الغربية فى أن تفرض سيطرتها ولسلطانها على الكنائس الشرقية!

وفى ضوء ذلك، ليس صعباً الجواب عن سؤال: هل كانت حقا صليبية ؟ وهو جواب يصبح أكثر سهولة، ويتأكد أكثر وأعمق حينما نمضى قدما مع وقائع هذه الحروب وأحداثها.

■ التجارة بين الشرق والغرب

لم يحلّ الربع الأخير من القرن الحادى عشر إلا وكان السلاطين السلاجقة قد سيطروا على الشام وآسيا الصغرى أو تركيا، ودانت لهم بالخضوع. وبذلك اختلَّ ميزان العلاقات التجارية بين آسيا وأوربا، فى وقت تَزايدتْ فيه أهمية التجارة بينهما، وتزايد نفوذ المُدُنِ التجارية فى البحر المتوسِّطِ، خاصة البندقية وجنوة وبيزا, وخشيت هذه المدن، وخشىَّ تُجَّارُها أن يغلق الأتراك السلاجقة أسواق الشرق أمامهم، فيضيِّعوا عليهم أرباحاً طائلة يجنونها من وراء ذلك.

وكان هذا هو الدافع الرَئيسىٍّ وراء الحماس الشديد الذى أبدته هذه المدن الثلاث للحروب الصليبية. ولم يكن مسعاها فى ذلك خالصاً لوجه الله أو الدين، بل كانت تبغى فى المقام الأول ضمان مصالحها التجارية، والحصول على مزيد من الأرباح.

لذلك، اشتركت أساطيل من البندقية وجنوة وبيزا فى حصار الموانئ الفلسطينية وفى تزويد الصليبيين بالمؤن والسلاح، ونقل جنودهم ومقاتليهم، لقاء فوائد مادية محددة، وامتيازات معينة فى المدن والمناطق التى استولى عليها الصليبيون.

وتمتع تُجَّارُ المدن الإيطالية الثلاث بامتيازات اقتصادية فى الموانئ والمدن الكبرى التى فتحها الصليبيون.

ومنح الأمير الصليبيُّ الذى لقى مساعدة البنادقة والبيزاويين والجنويين، منحهم فى إمارته وما يتبعها من مدن وموانئ أسواقاً وشوارع وفنادق وحمَّاماتٍ وغير ذلك من التسهيلات الضرورية والمفيدة للتجَّار.

وما لَبثتْ مدن فرنسا - مثل مرسيليا - أن زاحمت المدن الإيطالية فى هذا المجال.

واستغلَّ التجار شطارتهم ومهارتهم فى الحصول على مزيد من الأرباح والمكاسب. واستغلُّوا فى ذلك الخلافات والصراعات التى دارت بين الأمراء الصليبيين وبعضهم، فتَقدَّموا يعرضون خدماتهم على من يدفع أكثر، ومن يمنحْهم امتيازات أكبر.

وعندما استولى الصليبيون على إنطاكية، ثار الخِلافُ بين أمرائهم: من يكون أمير إنطاكية؟ وهدَّدَ الأمر بنشوب القتال بين الصليبيين وبعضهم. وقد رجَحَتْ كفَّةُ "بوهيموند" حينما منح تُجَّارَ جنوة عهداً أعطاهم بمقتضاه سوقاً وكنيسة وثلاثين بيتاً فى إنطاكية، فانطلق هؤلاء التُجَّار يؤازرون "بوهيموند" ويؤيدونه فى مطلبه بأن يكون أميراً للمدينة، دون غيره من الأمراء المنافسين.

أما تُجار البندقية فقد كتبوا أحد الفصول الطريفة فى الحروب الصليبية، عندما جَعلتْ الحملة الصليبية تنحرف عن وجهتها فى الهجوم على بلاد المسلمين، وتتوجه إلى القسطنطينية - وهو بَلَدٌ مسيحيٌّ - بدلاً من مصر. ولم يتورَّعْ التُجارُ عن استخدام الخداع والتضليل، حتى يضمنوا توجه الحملة إلى القسطنطينية، ما دام ربحهم هناك وليس فى مصر، وعلى قدر الربح تكون المَكائدُ! حتى ولو ضِدَّ بلد مسيحيٍّ من حملة تخرج تحت لواء الدفاع عن المسيحية!

وينسب بعض المؤرخين إلى "دومينيك ميتشيلى" دوق البندقية، خطاباً وجَّهَه إلى أهل مدينته لا يقِلُّ تعصباً عن خطاب البابا أيربان الثانى فى كليرمونت. قال دوق البندقية: "يا أهل البندقية: إن لكم أن تفخروا بدعوتكم إلى حمل السلاح

لتنتقموا من عدوٍّ دنَّسَ الأرض التى ولد بها مُخلِّصُنا وملكنا وأضاءها بدينه وشرَّفَها بمعجزاته. هذه هى الأفعال النبيلة التى دفعتنا ومعنا الأبطال الفرنسيون والجيوش الجرارة من أمراء أوربا لغزو الشرق وانتزاع فلسطين من أتباع محمد.

والآن يعود البرابرة إلى تخريب هذه الديار، وظُلْم أهلها ويطردون المسيحيين منها، فعليكم أن تمنعوا هذا الدمار برزانة عقولكم، وحزم إجراءاتكم. عليكم أنتم الشعب المسيحى، الشعب المتدين الذى يجعل من هذا فخراً له، عليكم أن تكونوا أوّلَ من ينقض على الجنس الممقوت البغيض، وأن تهجموا عليه بأساطيلكم وتعملوا على إغاثة المسيحيين بقدر ما تستطيعون".

ولم يعِشْ دومينيك ميتشيلى ليقول لنا هل كان غَزوُ القسطنطينية ونهبها إنقاذا لها من البرابرة المسلمين ؟ لقد كانت مسيحية يوم غزاها الصليبيون!

■ أصبح الأرنب فيلا

كلُّ المحاربين عبر التاريخ يحرصون على إخفاء الأسباب الحقيقية لحروبهم. ويحاولون أن يتمسَّحوا فى واحد أو أكثر من المُثُل العليا الإنسانية، الرفعية.

وقديماً وحديثاً أنكر الغزاة من كلِّ جنس وأُمَّةٍ أنهم يريدون التوسُّعَ على حساب أرض غيرهم، وأخفوا أطماعهم فى البلد الذى يعتدون عليه، كما أخفوا هدفهم فى أن يكون هذا البلد سوقاً لبضائعهم ومنتجاتهم، وموردا للقوى العاملة الرخيصة.

ولم يكُنْ أمراء وفرسان الحروب الصليبية استثناء من هذا، بل كانوا صورة مجُسدةً له.

مرت بنا الدوافع الحقيقية التى حركتهم إلى هذه الحروب. ولكنَّهم لم يذكروا هذه الدوافع بكلمة واحدة، وزعموا، بدلاً من ذلك، أنهم خرجوا من أجل إنقاذ قبر

المسيح من يد المسلمين، ولرفع الظُلمِ والاضطهاد الواقع على المسيحيين في فلسطين وعلى الحُجَّاجِ الأوربيين إلى القدس!!

ومن المؤكَّد، بشهادة المسيحيين والمسلمين فى زمن الحروب الصليبية وفى العصر الحاضر، أن حجم الاضطِّهادِ الذى قيل إنــه وقـع، لـم يكـن يـبرر بـأى حـال حدوث هذه الحروب التــى استمرَّتْ قرنيـن كـاملين، وأكثر، وشـهدت مـن أصنـاف الاضطهاد والقسوة والعذاب والألم ما يفوق بمئات وآلاف المرات تلك الحالات التى قيل إنها فتحت الباب لنشوب هذه الحروب.

وقد تفنن دعاة هذه الحرب وأنصارها فى تصوير المسلمين والإسلام بشـكل يستثير الغرائز لقتالهم وحربهم، فصوَّروهم فــى صـورة أكلـة لحـوم البشـر، وذئـاب الإنسانية وأعداء المسيح. علماً بـأن القـرآن الكريـم ـ كتـاب الإسـلام ـ يحـوى مـن التعاليم والآداب ما يتنافى مع ذلك كلية، حتى وهو ينظر إلى غير المسـلم علـى أنـه ذمىٌّ، فله ما للمسلم من حقوق وعليه ما على المسلم من واجبات. وقد منح الإسـلام للمسيحية كدين قداسة كاملة، ومنح المسيحيين معاملة عادلة، لم يتمتعوا بها فى ظـلِّ الرومان.

وكانت التهم التى أُشيعَتْ عن الإسلام والمسـلمين وليـدة التعصُّـب والجـهل، ووليدة المجتمع الأوربىِّ فى العصور الوسطى بفكره الميال إلى المبالغة والتضخيـم فى كل أمر من أمور الدنيا أو الدين. واتخذ ذلك الفكر مـن بعـض الحـالات الفرديـة التى وقعت لبعض الحُجَّاجِ المسيحيين إلــى القُدسِ وسـيلة لنَسْجِ الأسـاطير وتجسـيم الوقائع وتحويلها من حالات محدودة إلى حــالات عامـة، وتصويـر الأمـر علـى أنـه سياسة اضطهاد عامة من المسلمين لزوَّار قبر المسيح.

والمتاعب التى لقيها المسيحيُّون فى الشام وآسيا الصغرى فى ذلك الوقت لم تكن نتيجة سياسة عامة لاضطهاد المسيحيين بل كانت صدى للصراع الذى دار بين السلاجقة والبيزنطيين فى ذلك الحين.

أما ما قام به الخليفة الفاطمىُّ الحاكم بأمر الله ضد المسيحيين واليهود فقد كان جزاءاً من تقلباته وتغيراته التى لم ينج منها المسلمون أنفسهم، فضلاً عن أن اليهود والمسيحيين كانوا قد عرفوا قبل هذا الانقلاب فترة رائعة من العدالة والمُساواةِ ما لبثت أن سادت مرة أخرى بعد وفاة الحاكم.

والعين لا تقع إلا على ما يروقها. ولم ير مثيروا الحروب الصليبية ومشعلوا نيرانها غير الجانب المظلم والأسود، الذى دفعهم إلى إثارة تعصب أسود، دمَّرَ الكثير وحرق الكثير، باسم الصليب والصليب من كل هذا برئ.. برئ.

■ خطاب كليرمونت

طاف الرهبان والقسس والأساقفة أنحاء أوربا ينشرون الحقد ويبذرون الكراهية ضِدَّ العربِ والمسلمين. وغَطَّتْ سُحُبُ الحقد الأسود سماء أوربا، وامتلأتْ القلوب بروح الانتقام والعداء والكراهية ضِدَّ "المسلمين البرابرة" كما أسموهم الصليبيون أثناء مرحلة يَنْدُرُ مثيلها فى تاريخ التَعصُّبِ الدينىِّ.

ومن ثنايا هذه الروح الغاضبة نبتت الدعوة إلى حملة تطرد المسلمين من آسيا، وتستعيد قبر المسيح .... من الذى صاغ هذه الفكرة ؟!

ليس معروفاً على وجه محدَّدٍ من هو الشخص الذى بادر إلى صياغة هذا المشروع وطرحه على الناس، هل هو الإمبراطور البيزنطىُّ "ألكسيوس كومنين" الذى حكم ما بين ١٠٨١ و ١١١٨ فأنقذ بيزنطة من الانهيار بفضل شجاعته، وثقافته وسعة حيلته ؟

أو هو "بطرس الناسك" الرجل الغَريبُ الأفعال والسلوك ؟

أو هو "أيربان الثانى" بابا روما فيما بين ١٠٨٨ ـ ١٠٩٩ حيث تُوُفِّىَ بعد أسبوعين فقط من استيلاء الحملة الصليبية الأولى على القدس، ومات قبل أن يصل الخبر إلى أسماعه!

على أىٍّ حال، كانت أوربا عندئذ مهيأة ومستعدة كل التهيئة والاستعداد للقيام بإحدى غزواتها ضِدَّ هذه المنطقة من العالم، سواء كان يسودها ويحكمها المسلمون أو غير المسلمين كان لا بُدَّ لأوربا أن تخرج إلى الحرب والقتال، لتقللَ من صراع أمرائها وفرسانها وتُصدِّرَ هذا الصراع إلى أرض غير أرضها، ولكى تمسك بيدها طوق التجارة بين الشرق والغرب.

لذلك، تجاوبت أوربا كلُّها مع نداء البابا أيربان الثانى، وردَّدَ أبناؤها جميعاً "هذه مشيئة الله" يوم ردَّدَها القساوسة والأساقفة والرُّهبانُ وهم يستَمعون إلى البابا فى مدينة كليرمونت الفرنسية فى يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥.

وكانت هذه هى الشرارة التى أَطْلَقَتْ نيران الحروب الصليبية، وغيَّرتْ فيما بعد صورة أوروبا، بل صورة العالم كُلِّه، وقلبت موازين علاقاته ومعاملاته.

لم يحفظ التاريخ نصا لخطاب البابا إيريان.. وقد كان "خطابا ناريا" تطاير الشَّرَرُ من كلماته، وتولَّدتْ الحرب من جاذبيته، فقد كان البابا خطيباً قديراً، وواعظاً كبيراً.

وينقل البعض أن البابا قال، فيما قال: "أغار شعب قاسى ـ تلحقه اللَّعنةُ ـ على الأراضى المسيحية من أورشليم حتى القسطنطينية ودمَّرها بالحديد والسطوِّ والنار، ودَنَّسَ المحاريب وعذَّبَ المسيحيين.. فمن ينتقم لهذه الإهانة ؟

إنكم أنتم أيها الفرنسيون، الذين يقع عليكم هذا الواجب. عليكم يا من أنشأكم الله فوق مستوى الشعوب.

اذكروا مفاخر أسلافكم، اذكروا عظمة شارلمان وملوككم الآخرين الذين حاربوا الكُفَّارَ..

أيها الجنود الشجعان، يا أبناء الذين لم يعرفوا الهزيمة، اسلكوا طريق أسلافكم حتى قبر المسيح، انتزعوا الأرض المقدسة من يد هذا الشعب الممقوت وسوف نمنح الغفران الكامل والخلود الأبدىَّ للذين يموتون فى الأرض المقدسة.

إن هذه الحرب لا تُشَنُّ من أجل حيازة مدينة واحدة، بل لامتلاك أقاليم آسيا جميعها مع غناها وخزائنها التى لا تحصى. انتهزوا هذه الفرصة وخلِّصوا الأراضى المقدسة كُلَّها من أيدى مختلسيها، وامتلكوها أنتم خالصة لكم، من دون أولئك الكفار، فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلاً.

أيها الرجال: لقد كنتم تحاولون بدون جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم، فاستيقظوا الآن لأنكم وجدتم داعياً حقيقياً إليها. لقد كنتم سبب إزعاج مواطنيكم وقتاً ما، فاذهبوا الآن وأزعجوا البرابرة، اذهبوا وخلِّصوا البلاد المقدسة من أيدى الكفار.

أيها الجُند: أنتم الذين كنتم منبع الشرور والفتن، هُبُّوا اليوم وقدِّموا قواكم وسواعدكم ثمنا لإيمانكم، وتسلَّحوا بسلاح الدين والتقوى فإنكم بذلك تنالون الجزاء الأوفى والنعيم الدائم.

ليس فى وسعكم تدبير الطعام للسكان فى هذه البلاد، لأنكم تستهلكون، وتشنون فيما بينكم حروباً لا نهاية لها.

إن وقوع مسيحىٍّ واحد فى خطر، يعنى أن كُلَّ المسيحيين يعانون نفس الأمر. فكِّرُوا فى المسيحيين الشجعان فى أسبانيا الذين يخوضون حرباً شرسة ضِدَّ المسلمين، فكروا فى أوربا الشرقية البيزنطية العظيمة التى تتعرَّضُ للتهديدِ على يد المسلمين الأتراك.

وفوق كل هذا فكِّروا فى إخوانكم، وفى الأراضى المقدسة التى وُلِدَ فيها المسيح وعاش وبَشَّرَ ومات حاملاً خطايانا.

القُدسُ وبيت لحم والجليل، كلُّ أرض إلهنا الحبيب سَقَطتْ فى يد الأتراك البرابرة منذ ١٠٧١. كيف نقف غير مكترثين ونَدَعُ هذا يحدث؟ كيف نترك إلهنا يعانى من العار فى أرضه؟ يجب أن ننقذه. يجب أن نشكِّلَ جيشاً مسيحياً قوياً يطرُدَ

المسلمين الأشرار من الأماكن المقدسة ومن كل بوصة من الأرض المقدسة التى خطا فوقها المسيح يوماً.

إنى أدعو إلى حملة عظيمة من المسيحيين فى كُلّ مكان، من الأغنياء والفقراء، من الأقوياء والضُعَفاءِ، على كُلّ فرد أن يقسم بأن يحمل الصليب ويقاتل فى سبيل المسيح".

كان البابا يتحدَّثُ بحماس منقطع النظير، وبلهجة خطابية أحسن توظيفها لخدمة هدفه فى إثارة وتأجيج الغضب، فكان يضغط على ألفاظه، ويرفع صوته حينما يدعو إلى الخروج للقتال. كانت لهجَتُه تحرك الحجر، فما بالك ونفوس الحاضرين مهيأة للاستجابة، ومشحونة بالغضب. لقد صَبَّ البابا بكلماته الزيت على النيران المتقدة.

وهتف أحد الحاضرين "هذه مشيئة الله" وردَّدَها ثان وثالث، وانتقلت إلى الحاضرين جميعاً من رجال الدين وغير رجال الدين، فارتفع صوتهم بها فى نداء هزَّ المكان.

فاضت عينا البابا أيربان بالدمع فرحاً، وغطَّى الدمع لحيته ورفع ذراعيه عالياً وبارك الحاضرين وخاطبهم قائلاً: "نعم، حملَتُنا الصليبية هى إرادة الله، والآن سنبعث الرُسُلَ والمبعوثين لكُلِّ القُرَى والمُدُنِ فى أورُبا، وندعو الناس جميعاً للانضمام إلينا فى حرب عظيمة مقدّسةٍ.. أجل.. هكذا أراد الله، ولتكن هذه العبارة التى أوصى بها روح القدس صرختكم للحرب منذ اليوم، ليعود الحماس بفضلها، وترجع الشجاعة بُسرِّها إلى قلوب أولئك الذين سيدافعون عن السيِّدِ المسيح، وليكن الصليب رمز خلودكم، فاحملوا الصليب على صدوركم وليكن لونه من لون الدم، واحملوا صليباً آخر على كتفكم ليكون رمزاً لعهدكم الذى لا رجوع فيه، عهدكم على الجهاد ضِدَّ المسلمين.

وفجَّرَتْ كلمات البابا روحاً حماسية لم يتوقعها البابا نفسه.

ووضعت للحرب الصليبية قوانينها، فكان على كُلّ محارب صليبيّ أن يحمل علامة الصليب، رمز التضحية والفداء، ويُخَيِّطُ صليباً من قماش أحمر اللون على سترته الخارجية، وعلى كُلّ من اتَّخَذَ الصليب أن يفى بوعده ويسير إلى بيت المقدس، فإن لم يفعل طرد من رحمة الكنيسة. أما إذا خرج فإن أمواله وأملاكه تكون بيد الكنيسة حتى يعود.

ومضى البابا يتعهَّدُ مشروعه القتالىَّ بالرعاية والعناية. وانطلق القساوسة والأساقفة وغيرهم من رجال الدين ينشرون روح الحرب الصليبية فى أنحاء أوروبا يدعون الناس إلى المساهمة فيها، والدخول فى صفوفها، وكالحُمَّى انطلقت الدعوة فى أوربا كلها: شمالها وجنوبها، مدنها وقراها، قلاعها وحصونها، إماراتها وممالكها، كنائسها وأديرتها، واستجاب العامَّةُ والخاصَّةُ، وتسابق أمراء الإقطاع فى تكوين الجيوش فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا، وغيرها.

ولعب الفرنسيون دوراً مهماً وبارزاً فى هذه الحروب، فى حشد الجيوش وتعبئتها، وكان فرسانها نموذجاً لغيرهم من الفرسان الأوربيين الذين اشتركوا فى هذه الحرب. إذ كان القلق والميل للمغامرة صفة سائدة عند طبقة الفرسان الفرنسيين، خاصة عند النورمان منهم الذين لم يتحوَّلوا من حياة البداوة وقطع الطُرُق إلا منذ أجيال قليلة، ولعلَّ المجاعة الشاملة التى اجتاحت فرنسا فى ذلك الوقت، حيث ندرت الحبوب وارتفعت الأسعار تفسِّرُ الزيادة الكبيرة فى عدد المقاتلين الفرنسيين فى الحرب الصليبية الأولى، على عدد المقاتلين من البلاد الأوروبية الأخرى مثل إيطاليا وأسبانيا والدنمارك واسكتلندة وغيرها.

وبينما انطلق رجال الكنيسة يدعون فى أوربا إلى الحرب المقدَّسةِ ضد بربرية الإسلام، انطلق البابا فى أنحاء فرنسا ينشرُ دعوته، ويعبِّئُ الناس حول فكرته، وقضى عاماً تقريباً فى ذلك، فلم يعد إلى إيطاليا إلا فى أواخر عام ١٠٩٦،

واستجاب رجال الدين والناس العاديون والأشراف إلى دعوة البابا أيربان الذى لم يستجب لهم عندما دعوه إلى الخروج معهم ليقود حربهم ضدَّ الإسلام.

البابا أيربان الثانى (١٠٤٢ ـ ١٠٩٩)

أودوأوف لاجيرى الذى حمل اسم البابا أيربان الثانى.

صعد إلى كُرسىِّ الباباوية المقدس فى ١٢ مارس (آذار) ١٠٨٨.

وقد ولد حوالى ١٠٤٢ فى شاتيون سيرمارن بفرنسا.

دخل فى سِلكِ الرهبنة منذ عام ١٠٧٠ وفى ١٠٧٨ أصبح كادرينالا، ولمّا أصبح بابا بعد ذلك بعشر سنوات كان أحد أعماله محاوله القضاء على الخلاف الطويل العمر مع أباطرة بيزنطة المسيحيين. وكانت دعوته إلى الحروب الصليبية تدخل فى هذا الإطار. أراد أن يساعد البيزنطيين فى طرد الأتراك من آسيا الصغرى، كوسيلة لفرض سيطرته الدينية على رجال الكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية).

تُوفِّى البابا أيربان فى ٢٩ يوليو (تموز) ١٠٩٩ أى بعد أسبوعين فقط من دخول قوات الصليبيين إلى القدس.

وقد لقى ربّه دون أن يسمع هذا النبأ، الذى كرّسَ سنواته الأخيرة له.

وشهد له معاصروه بالمرونة السياسية والكفاءة، كما اعترفوا له بمقدرته على التأثير فى الرجال، وتوجيههم واختيار الأكفّاء منهم.

■ حملة العامة وبطرس الناسك

انتشرت الدعوة إلى الخروج للحرب المقدسة بين الفلاحين الفقراء انتشار النار فى الهشيم بعدما وجدوا فيها خلاصهم من حياة شاقَّةٍ ثقيلة لن يندموا يوما على فقدها. وانتشر بين العامة مجموعة من الخطباء الشعبيين الذين وضعوا أنفسهم فى خدمة "الحرب المقدسة" مثل "والتر المفلس وبطرس الناسك، وبطرس [illegible] وفولكمار" وغيرهم.

كان هؤلاء الدعاة جميعهم شخصيات غريبة الأطوار، وسريعة التقلب. وكان بطرس الناسك من أكثرهم غرابة، ولا يزال من أكثرهم شهرة. وفى تاريخ هذا الرجل اختلطت الحقيقة بالخرافة. وينسب البعض إليه أنه أول من صاح "هذه مشيئة الله" عندما كان البابا أيربان الثانى يتحدَّث فى كليرمونت. بينما يقول البعض إنه لم يكن حاضراً هذا الخطاب!!

وكان بطرس الناسك قد تزوَّجَ بامرأة عجوز، كانت على خصام مع الجمال، فسعى إلى الخلاص منها، ولم يجد وسيلة إلى ذلك سوى هجرها، واللجوء إلى أحد الأديرة ليتفرَّغَ للعبادة والتأمُّل.

وداخل الدير، اعتزل بطرس رفاقه من الرهبان، وسيطرت عليه حالةٌ غريبةٌ، وأصيب جسمه بضعف شديد، بينما نشط خياله، لدرجة أنه كان إذا رغب فى شىء ما، تصور أن هذا الشىء موجودٌ فعلاً ومتاحٌ له. ويظلُّ يعتقد فى ذلك، حتى يتخيَّلَ هذا الشىء أمراً واقعاً.

وعندما تقدم بطرس فى السن، رغب فى الحجِّ إلى بيت المقدس. وخرج قاصداً ذلك، وفى الطريق اعترضته عقباتٌ منعته من تحقيق هدفه، وقيل إن بعض الأتراك اعترضوا طريقه، ومنعوه من إكمال طريقه. فعاد أدراجه، وقد مُلِئتْ نفسه حقداً، وازداد إحباطاً على إحباط. وتوجَّه إلى البابا أيربان يشكو إليه ما لقيه من

متاعب ويقصُّ عليه أقاصيص غريبة ومختلفة عن اضطهاد المسلمين للحُجَّاجِ المسيحيين.

صادفت أحاديث بطرس هوى فى نفس البابا إيريان، فكاشفه بنيته فى الدعوة إلى حملة صليبية تُخلِّصُ قبر المسيح من يد "البرابرة المسلمين".

تحمَّسَ بطرس لفكرة البابا وآزرَها. وبعد خطاب كليرمونت، خرج بطرس الناسك يدعو العامة إلى الاشتراك فى الحرب المقدسة.

طاف بطرس الناسك بمختَلَفِ أنحاء فرنسا، يدعو الناس ويبشرهم، كان يحمل على ظهره صليباً خشبياً كبيراً، ويركب حماراً أعرج، ويسير حافياً، وملابسه شبه ممزقة، كان جسده يهتز وهو يخطب، والدموع تغرق لحيته البيضاء التى كان لا يفوقها فى البياض إلا لون شعر رأسه.

البعض يصف بطرس الناسك بأنه كان خطيباً قديراً.. والبعض يقول عنه إن هيئته غير العادية كانت أحسن وسيلة خطابية فى التأثير على العامة والفقراء الذين انجذبوا إليه، وخرجوا معه بالعشرات والمئات، يتبعونه أينما ذهب، ويتوجهون معه حيثما رحل، وبلغ عدد هؤلاء حوالى خمسة عشر ألف نسمة.

ولم يكن بطرس الناسك وحيداً فى هذا المجال. فى نفس الفترة تقريباً، خرج والتر المُفلِسُ أو المُعدَمُ الذى نجح أيضاً فى تجميع الآلاف من العامة حَولَه، وبدأ بهم مسيرته القتالية قبل أن يبدأ بطرس فى الخروج من أوربا إلى الشرق. وفى أوائل يوليو (تموز) ٩٦. كان فوج والتر المفلس أول الأفواج الصليبية التى بلغت القسطنطينية فيما يُعرَفُ باسم "حملة العامة" أو حملة الفلاحين.

عبَرَ والتر المفلس بأتباعه هنجاريا - المجر - إلى الدولة البيزنطية. وفى رحلة العبور هذه ارتَكَبَتْ هذه الجموع الصليبية كل ما يتنافى مع أبسط القواعد الأخلاقية المسيحية، فنهبت، وقتلت، وخرَّبَتْ ونشرت الفساد فى أىِّ مكان حلَّتْ به، حتى الكنائس لم تنج من السرقة على يد هؤلاء الصليبيين.

وفى مدينة مجرية واحدة قتلـوا نحـو ٤ آلاف مـن إخوانهـم فـى الديـن، مـن المسيحيين.

وعندما بلغ هؤلاء العامة أسوار مدينة القسطنطينية العظيمة، كانت شُـهرتُهم قد سبقتهم إليها. وكان الإمبراطور البيزنطيُّ "الكسيوس كومنين" مدركـا لمـا يتّهـدَّد مدينته مـن أخطـار علـى يدٍ أمثـال هـؤلاء. فمنعهـم مـن دخولهـا. وسـمح لهـم فقـط بالانتظار خارج أسوارها حتى يحضر بطرس الناسك.

ولم يكن أتباع بطرس الناسك أحسن حالاً من أتباع والتر المفلس، من حيث الميل إلى النهب والقتل والتخريب، وخرج بطرس بأتباعـه مـن ألمانيـا وتوجَّـه إلـى هنغاريا ثم الدولة البيزنطية. وما أن دخلوا حدودهـا حتـى وجـدوا بعـض الموظفيـن البـيزنطيين يقودونـهـم وبسـرعة إلـى القسـطنطينية، التـى بلغـوا أسـوارها فــى أول أغسطس (آب) ١٠٦٩، حيث انضموا إلى أتباع والتر المفلس.

استقبل الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين فى بلاطه بطـرس الناسـك. ونصحـه بـالتريُّثِ فـى العبـور إلـى آسـيا، حتـى تصلـهم قـوات نظاميـة مـن الغـرب تساعدهم وتساندهم فى قتال الأتراك السلاجقة.

لم يطق أنصار والتر وأتباع بطـرس الانتظـار، ولـم يكفُّـوا عـن التخريـب. فوجد الكسيوس كومنين من الخير لـه ولعاصمتـه أن يبعـد هـؤلاء المخربيـن عنهـا، بحشد عدداً كبيراً من السُفُن والإسـراع بنقلهـم إلـى الشـاطئ الآسـيوى مـن مضيـق البسفور.

وفى موقعها الجديد لم تستطع هذه الحُشودُ انتظاراً، فمضت تُخَرِّبُ وتفسـد، ودخلت فى معارك خاطفة ضِدَّ الأتراك، أحرزت فيهـا مـا ظنتـه انتصـارات. ولكـن هذه الجموع لم تكنْ تدرى أنها تقف قريبة من "نيقيه" قاعدة السلطان السلجوقى "قلـج أرسلان" الذى خرج عليهم فـى أكتوبـر (تشـرين الأول) ١٠٩٦ أثنـاء زحفهـم فقتـل وذَبَحَ خلقاً كثيراً، ولـم تنـج إلا قلـة قليلـة أسـرع الإمـبراطور البـيزنطى فـى إنقاذهـا

ومساعدتها على البقاء فى القسطنطينية فى انتظار حملة الفرسان، للانضمام إليها.

وبهذه الهزيمة المرة، انتهت حملة الفلاحين، وفقد بُطرس الناسك أهميته، والتحق بجيش الفرسان، وسار فى ركابهم. وحينما حاصر الصليبيون إنطاكية وقتاً طويلاً، يئس بطرس من شدة الحصار ومن سقوط المدينة، فحاول الفرار ذات مساء، وطارده أحد الأمراء ونجح فى اللحاق به، وأعاده إلى المعسكر الصليبى.

وصدر عنه عفو سرى ولكن، بعد أن فقد هيبته، وأُصيبَت سمعته بِجُرحٍ عميق.

وبعد دخول الصليبيين إلى القدس بحوالى عام، عاد بطرس الناسك إلى أوربا مع كثير من الصليبيين الذين اعتقدوا أنهم أوفوا بعهدهم بدخول بيت المقدس. وفى ٨ يوليو (تموز)١١١٥ تُوفِّى بطرس الناسك بعد أن كان قد بلغ من العمر أرذله.

■ الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين

أصبح الكسيوس كومنين إمبراطوراً لبيزنطة فى عام ١٠٨١. وقرَّرَ أن يدفع عن إمبراطوريته خطر الزحف السلجوقى, ورأى أن يستعين فى ذلك بالغرب اللاتينى. أرسل الكسيوس خطاباً إلى البابا أيربان الثانى يدعوه إلى نجدته، ويُعتَبرُ هذا الخطاب نقطة البدء فى خروج الحملة الصليبية الأولى.

كان الإمبراطور البيزنطىُ يريد مساعدة الغرب له فى استرداد أملاكه المفقودة فى أسيا. ورأى البابا فى هذه الدعوة فرصة للعمل على استعادة الأماكن المقدسة فى فلسطين، وكان من الممكن أن يتمَّ تحقيق الهدفين معاً، ولكن الصدام بدأ عندما أراد قواد الحملة أن يحتفظوا لأنفسهم بالأراضى البيزنطية التى استردُّوها من الأتراك السلاجقة. وتشكَّك كل جانب فى نوايا الآخر وأهدافه. ولم يترَدَّدْ

الإمبراطور فيما بعد فى الاستعانة بالمسلمين ضدَّ الصليبيين، بعد أن وضحت له نوايا الأمراء الصليبيين، كما تأكد له أنه استعان بقوم كانوا فى حاجة إلى عون.

■ حملة الفرسان

كان الأمير "هيوكونت" أمير مقاطعة فرماندوا الفرنسية، أول أمير يخرج على رأس قواته، كى يحوز قصب السبق على الأمراء الآخرين. وفى الوقت نفسه، استعدَّ للخروج "جودفرى دى بوايون" أمير لوترنجيا، وانضمَّ إليه عددٌ من الأمراء الآخرين، منهم أخوه بلدوين البولونى، كما خرج "ريموندى تولوز الرابع" و"روبرت" أمير نورمانديا وغيرهم.

وكانت الحملة الصليبية الأولى فى حقيقتها عدة حملات. فكلُّ أمير استجاب لدعوة البابا أيربان خرج يقود عدداً صغيراً أو كبيراً من القوات التى رفعت الصليب.

وتَحركتْ هذه الحملات عبر أوربا. وارتكب بعضها من المخازى ما لا يقلُّ شأناً عمَّا ارتكبته حملة الفلاحين.

وتَجمَّعتْ هذه الحملات المتفرقة فى القسطنطينية، وآخر مجموعة منها وصلت إلى العاصمة البيزنطية فى مايو (آيار)١٠٩٧.

سَيطرتْ مشاعر مُختلفةٌ على الكسيسو وهو يرى هذه القوّاتِ الكبيرة التى بلغت حوالى ٨٠ ألفاً. رحَّبَ بقدومهم لمساعدته، وخشى من قوتهم على عاصمته، خاصة أن ذكرياته عن أعمال حملة العامة أو الفلاحين كانت لا تزال حَيةً. وزاد من قلقه عدم وجود قيادة تُسيطرُ على الحملة، ويخضع أفرادها لأوامر هذه القيادة بالرغم من وجود مَندوبٍ للبابا فى صَفٍّ أحد الأمراء.

وزاد قلق الكسيوس حينما وقعت اشتباكات مختلفة بين جنوده وقوات الصليبيين، رغم أنه أمد هذه القوات بالمؤن، والميرة اللازمة لدوابها.

ونجح الإمبراطور البيزنطيُّ في الحصول من أمراء الحملة على يمين الولاء له، والاعتراف به سيداً على البلاد التى يفتحونها، وتعهدُّوا له بأن يسلِّموا إلى موظفيه البلاد التى يستردُّونها وكانت فى الأصل من أملاكه.

أقسم على هذا جودفرى، وبلدوين، وبوهيموند النورمانى وكبار القادة، عدا ريموندى تولوز الرابع أمير تولوز، وبروفانس الذى كان يتطلع إلى تنصيبه زعيماً على الصليبيين جمعياً، كما كان فى صحبته مندوب البابا أيربان.

وأحس الإمبراطور البيزنطيُّ أن عبئا ثقيلاً ألقى من على كتفيه حينما غادرت قوات الحملة عاصمة إمبراطوريته، خاصة بعد أن حصل من أمرائها على يمين الولاء والتبعية له.

ولكن الخلافات والاحتكاكات التى حدثت خلال ذلك، بذَرتْ بذور الشَّكِ بين الفريقين، بين البيزنطيين والصليبيين. وهو ما سيؤثر على علاقتهما المتبادلة فيما بعد، حيث ستنقلب هذه العلاقات وتتقلب ما بين الودِ تارة، والفتور تارة أخرى، والعداء والقتال تارة ثالثة.

رغم هذا، فإن الحملات الصليبية قد سَاعدت فى إطالة بقاء الإمبراطورية البيزنطية،كما أن هذه الحملات حقَّقت ما حققته من نجاح بفضل المعونة والمساعدة التى حصلت عليها من البيزنطيين والتى عاونتها فى الوصول إلى الشام.

وعَبر آسيا الصغرى سارت الحملة الصليبية، وصولا إلى الشام, وبدأت انتصاراتها بالاستيلاء على "نيقيه" مقر حكم السلطان قلج أرسلان فى ٢٦ يونيو (حزيران) ١٠٩٧ ولم يأت شهر أكتوبر (تشرين الأول) من نفس العام إلا وجنود الصليبيين يعسكرون فى إنطاكية، ويبدءون غزو الشام.

لم تكن مَسيرةُ الصليبيين من القسطنطينية إلى الشام سهلة أو يسيرة، لقد اكتنفتها الصعوبات والمَشاقُّ التى تَزايدتْ بفقدان النظام فى صفوف القوات، ونقص ا ـودّ، وقلة المياه، وعدم كفاية دَوابِّ النقل، وانتشار الأمراض التى لم يكن أفراد

الحملة يعرفونها، إذ كانوا يجهلون طبيعة المناطق التى يسيرون فيها، وطبيعة البلاد التى يتّجهون إليها.

وتخلّلتْ المسيرة خلافات واشتباكات بين قوات الحملة وأمرائها. أكّدَ هذا أن هؤلاء الأمراء لم يكونوا على استعداد لأن يتعاونوا من أجل صالح العالم المسيحىّ إذا ما لاحت لأحدهم فُرصةٌ للاستيلاء على إمارة خاصة.

وكانت هذه الخلافات بين الصليبيين تحدُثُ وتجرى أمام أنظار المسيحيين من أبناء البلاد الذين استيقظوا على حقيقة أن هؤلاء الوافدين من الغرب لم يأتوا لإنقاذهم، وإنما جاءوا ساعين وراء أهداف أُخرَى، ووضح هذا فى الرَّها.

القسطنطينية

عاصمة الإمبراطورية البيزنطية. واحدة من أكثر مدن العالم فى العصور الوسطى أثراً فى تفكير الناس. اشتهرت عندئذ بوفرة سكانها، وزيادة ثرواتها ومناعة استحكاماتها، وبفنونها الرفيعة. أثارت دهشة الفرنجة عند دخولها. فقد كانت أكثر رقياً وتطوراً من مدنهم، ولا تضارِعها أىُّ مدينة فى الغرب عندئذ.

■ الرها: بلدوين يقيم أول إمارة صليبية

إلـى الشـرق مـن مدينـة بورسـعيد المصريـة، يوجـد مكـان يعـرف "بسـنجة البردويل" كان الناس فى عهد مضى إذا مرُّوا به يرجمونه، وهـو قريـبٌ أيضـاً مـن "بحيرة البردويل".

ويُقالُ إن كلمة "بردويل" هذه كانت منذ أيام الحروب الصليبية تحريفاً لاسم بلدوين الأول، أول ملك صليبى فى إمارة بيت المقدس الصليبية، وقد تُوفِّـيَ بلدويـن فى المكان المذكور، بعد أكلة سمك أهاجت جرحاً قديماً فى جسمه، واضطر إلى أن يأمر رجاله بالرجوع عن غزو مصر.

واشتدَّ عليه المرض فى الطريق، ومات. فشَقَّ رفاقه بطنـه ودفنـوا أحشـاءه فى هذا المكان فأطلق عليه سكان المنطقة، على المكان اسم "سنجة بردويل".

وكان بلدوين هذا ـ أو بردويل ـ أحد الأمـراء الذيـن قـادوا الحملـة الصليبيـة الأولى. كان من أقلِّهم شـأناً. اعتـاد الاعتمـاد علـى مـا كـان يجـود بـه عليـه أخـواه جودفرى دوق اللورين الأدنى، ويستاس كونت بولونيا. إذ كان فقيراً معدماً. ورغم ذلك كان يمِيلُ إلى الأُبَّهةِ والترف، وإلىاللهوٍّ والمجون، مع قدرة كبيرة على احتمال المشاقٍّ. كان لا أمل له ولا مستقبل فى أرض فرنسـا، حيـث كـان ينتمـى إلـى فـرع صغير من أسرة حاكمة. فخرج مدفوعاً بالأمل فى البحث عن إمارة فى الشرق.

وفى القسطنطينية أقسم بلدوين مع أخيه جودفرى وبقية أمراء الحملـة يميـن الولاء للإمبراطور البيزنطيٍّ الكسيوس كومنين.

وسار مع الجيش الصليبى حتى "هرقلة" حيـث انفصـل عنـه ومـع عـدد مـن الفرسان والمشاة. وبعد أن استولى على طرسوس عاد فالتحق بالجيش الأصلى، ثـم انفصل عنه مرة ثانية، حينما سار ذلك الجيش جنوباً نحـو إنطاكيـة؟ وسـار بلدويـن نحو الشرق، متوجها إلى نهر الفرات. حيـث عقـد صـلات مـع الأرمـن سـكان هـذه

المنطقة، فرحبوا به واستقبلوه مستبشرين فى المُدن والقرى والحصون التى انتزعها من يد الأتراك.

وحينما وصل بلدوين إلى حصن تل باشر واستولى عليه، تَلَقّى بعثة من جانب تورِوس حاكم الرها، يدعوه إلى نجدته، فقد كان هذا الحاكم مكروهاً من بنى وَطنه، ومهدداً من جيرانه الأتراك الذين كانوا يحيطون بالرها من كل ناحية.

استجاب بلدوين. ودخل الرها فى ٦ فبراير (شباط) ١٠٩٨. ولقىً استقبالاً حماسياً من توروس ومواطنيه على السواء. إذ اعتبر الأرمن الصليبيين حلفاء لهم ضِدَّ السلاجقة وضِدَّ البيزنطيين، وقدَّموا لهم أنواعاً مختلفة من العوْن والمساعدة، فأمدوهم بالرجال والخيول والسلاح والطعام.

وكان توروس يعيش بلا أبناء. فعرض على بلدوين أن يتبناه، ويتخذه له وليداً وشريكاً فى الحكم. وفى احتفال ضخم جرت مَراسمُ التبنّى. وتجرَّدَ بلدوين من ملابسه حتى وسطه وارتدى توروس قميصاً فضفاضاً واسعاً، دخل فيه بلدوين معه. وحك كل منهما صدره فى صدر الآخر. وتكرر هذا بين بلدوين وأمِّه بالتبنى. وكانت هذه هى طُقوسُ التبنِّى فى الكنيسة الأرمنية.

صار بلدوين شريكاً لتوروس فى حُكمِ الرها. وصارت الرها إمارة شبه صليبية. ولما كان توروس حاكماً مُستبداً، ظالماً، فقد كان ـ مثل كل المستبدين ـ مكروهاً من شعبه الذى ما لبث أن ثار ضده. ولم يكن بلدوين بعيداً عن الدوائر التى دبّرت الثورة. ورغم أنه أقسم لوالده بالتبنى بأنه لن يصاب بسوء من الثائرين إذا تنازل عن العرش. وأقسم بذلك على صليبيين من الآثار المقدسة فى أرمينيا، رغم ذلك قتل الثائرون توروس، وقطعوا رأسَه، ومثَّلوا بجثته، وحملوها فوق الحراب، وداروا بها فى قرى الإمارة.

وبعد أيام، نادى أهالى الرها ببلدوين حاكماً لإمارتهم، وأقسموا له اليمين بالولاء والطاعة، على أمل أن يلقوا فى عهده ما حُرِمُوا منه فى عهد توروس.

وبذلك قامت أول إمارة صليبية فى الشرق. وعمل بلدوين على إغراء الفرسان الصليبيين على القدوم إلى إمارته والإقامة بها. فجاءوه بأعداد كبيرة، وحصلوا على ما منحهم من امتيازات. وحاولوا مثله أن يخطبوا ودَّ الأرمن، ويتقربوا منهم بالزواج بأرمينيات، خاصة من بنات العائلات الكبيرة والثرية. وهو ما فعله بلدوين نفسه.

وقد نجح بلدوين فى تحقيق الاستقرار فى إمارة الرَّها بصد غارات الأتراك ودفع خطرهم عنها، وفى الوقت نفسه، أساء الصليبيون معاملة الأرمنْ، كما أن بلدوين نفسه قَلَّلَ من اعتماده على الأرمنيين وجعل مستشاريه ومعاونيه من الصليبيين فقط، فغضب الأرمن، وندموا على ما فعلوا فى أنفسهم بأيديهم حينما جعلوا هذا الصليبىَّ الوافد أميراً عليهم. وحينما دبَّروا مؤامرة لقتله وتعاونوا فى ذلك مع بعض الأتراك المجاورين، اكتشف بلدوين الأمر، وأخمده بقوة وعنف كبيرين.

ويشهد تاريخ الرها أن سكَّانها المسيحيين الأرمن لم يلقوه من سوء المعاملة أكثر مما لاقوه فى ظل حُكم هذا الفارس الصليبىِّ، الذى جاء إلى الشرق رافعاً الصليب، وساعيا إلى إنقاذ قبر المسيح الذى لم يشاهده إلا فيما بعد! وليس هذا من الصليب فى شئ.

ولكن من الناحية الواقعية، من ناحية السياسة والحرب، كانت إمارة الرها ذات فائدة كبيرة للصليبيين. كانت خطَّ الدفاع الأول من الشرق عن الصليبيين فى الشام. وقد احتلَّتْ مكاناً مهماً وخطيراً بالنسبة للعراق والشام. وكانت حجر الفصل بينهما. ولذلك ظلَّت الإمارات الصليبية فى الشام وفلسطين شبه آمنة من الشرق والشمال الشرقىِّ طوال الفترة التى عاشتها الإمارة الصليبية فى الرَّها. وحينما انتهت هذه الإمارة سقط خطٌّ دفاع صليبى قوى.

ومثلما كانت الرَّها أول إمارة صليبية تَقومُ فى الشرق، فقد كانت أول إمارة

صليبية تسقط وتنتهى. كان لقيامها نَتائجُ مُهمة، وكـان لسـقوطها نَتـائجُ أهـم بالنسـبة للحروب الصليبية.

أما بلدوين الذى لَمَع نَجمُه الصليبى فـى سـماء الرَّهـا، فقد أصبـح فـى عـام ١١٠٠ أول ملك صليبى لمملكة بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفرى.

وقد وضع بلدوين الأُسُسَ التى اعتمد عليها استمرارُ المملكة وبقاؤها. وظَـلَّ ملكاً حوالى ١٨ سنة، وحتى وفاته عندما خرج يحاول غَزوَ مصر.

■ حصار إنطاكية

غَادرَ الصليبيون مرعش.. واتجهـوا منهـا إلـى إنطاكيـة. وبلغتهـا طلائعهـم يقودها بوهيموند فـى ٢١ أكتوبـر (تشـرين أول) ١٠٩٧، وتجمَّـعَ الجيـش الصليبـىُّ الكبير أمام مدينة ذات أهمية كبيرة فى تاريخ المسـيحية. وذات أهميـة عسـكرية بالنسـبة لأهداف الصليبيين. فموقع إنطاكية عند مداخل الشام جعلها مفتاحه من ناحية الشمال.

وبالنسـبة للمسـيحية والمسـيحيين، يقـول الإنجيـل: إن تلاميـذ السـيد المسـيح أُطلِقَ عليهم اسم "مسيحيين" لأول مرة فى هذه المدينة، وفيهـا أسَّسَ القديـس بطـرس أسقفيته الأولى.

وكانت إنطاكية مركز التبادل التِّجـارى بيـن المسـلمين والبـيزنطيين. وكـان الأتراك المسلمون قد انتزعوا المدينة عام ١٠٨٥ من يد البيزنطيين. معنى هـذا أن المدينة حينما يستعيدها الصليبيون يجب أن تعود إلى الإمبراطورية البيزنطية، طبقـاً لليميـن الـذى أقسـمه الأمـراء والقـوَّادُ الصليبيـون للإمـبراطور الكسـيوس كومنيـن. وستُثِير هذه النقطة الخلافات بيـن البـيزنطيين والصـليبيين، كمـا سـتثير المشـاحنات والمنافسات بين أمـراء الصليبييـن وبعضهـم، وكـان كـل واحـد منهـم يريدهـا إمـارة لنفسه، وأزكى حصول بلدوين على الرها هذه المنافسات وأشـعل نيرانهـا. وضـرب كل منهم بيمين الولاء عرض الحائط.

واستعصى على الصليبيين فتح إنطاكية. فقد كانت مدينة حصينة تحصيناً طبيعياً صنعته الجبال العالية من الجنوب والشرق، ونهر العاصى من الغرب، ومستنقعات وغابات من الشمال، بالإضافة إلى قلعة زادت الحصون مناعة وقوة.

وكان حاكم المدينة "ياغى سيان" قد أعد للأمر عدته منذ سمع بزحف الصليبيين نحو المدينة. واستعدَّ لاحتمال حصار طويل، على نمط أساليب الدفاع العسكرىِّ فى تلك السنين. ملأ ياغى سيان قلاع المدينة بالمقاتلين من الجنود، وملأ مخازنها بالحبوب ومُختلَفِ الأغذية الكافية. وأرسل ابنه إلى حكام المسلمين القريبين منه يدعوهم إلى نجدته وإسعافه أمام الجيش الصليبى الكبير.

استجاب بعضُ الحكّامِ لدعوة ياغى سيان. وحشدوا جنودهم وزحفوا نحو إنطاكية. وما لبثوا أن تفرَّقوا عند أول اختبار لهم مع الصليبيين. وبعض هؤلاء الحكام وصل متأخراً، بعد سقوط إنطاكية.

وطال حصار المدينة وامتدَّ. وأصاب التعب والإجهاد الصليبيين الذين نصبوا طوق الحصار، كما أصاب المسلمين الذين احتملوه وقاوموه.

فى بعض الشهور كاد طعام الصليبيين ينفد وينتهى. وزاد الطين بلة والأمر سوءاً وقوع زلزال، أعقبه سقوط أمطار غزيرة، وقال الصليبيون لأنفسهم: إن الله ليس راضياً عن أفعالنا. وصاموا ثلاثة أيام تقرباً إلى الله. ولكن الصوم لم يمنعْ حدوث المجاعة التى أهلكت صليبيا من كُلِّ سبعة.

وأصبح الوضع شبه ميئوس منه. وحينما اشتدَّ الجوع، وبلغ بالجنود الصليبيين كل مبلغ، بدءوا يفرون من الميدان. ولم يحاول الفرار صغار المقاتلين فقط، بل اشترك فى ذلك عدد من القادة المشهورين مثل بطرس الناسك.

واستغلَّ المسيحيون المحليون الفرصة للتجارة والربح، فباعوا ما لديهم بأغلى الأسعار التى لم تكن فى مقدور الجزء الأكبر من الصليبيين. وفى الوقت نفسه، كان فَرِيقٌ من المسيحيين السوريين والأرمن قد حملوا إلى ياغى سيان

كميات كبيرة من القمح والشعير والزيتون والعلف، وقاتل بعضهم ضد الصليبيين الذين كانوا يظنون أن هؤلاء المسيحيين سيكونون عونا لهم ضد المسلمين.

وفى ذلك الوقت، كانت القوَّاتُ العربية الإسلامية تستطيع إنقاذ إنطاكية لو تجمَّعتْ واتَّحدَتْ، لكنها لم تفعل. بل إن سقوط إنطاكية كان نتيجة خيانة أحد القادة المسلمين داخل المدينة!

■ خيانة فيروز

الحرب خُدعةٌ، والخيانة جزء من خداع الحرب، يستطيع كلُّ مقاتل أن يستفيد منها ضِدَّ العدو الذى يواجهه. وقد حفلت الحروب الصليبية بعدد كبير من الخيانات، من أشهرها تلك الخيانة التى ساعدت الصليبيين فى فتح إنطاكية والاستيلاء عليها، بعد أن كاد اليأس يصرفهم عنها، ويدفعهم إلى فكِّ الحصار.

لقد أثبت ياغى سيان الحاكم السلجوقىُّ كفاءة عالية فى مواجهه الحصار. لكنه لم يكُنْ يعتقد أن الخيانة ستأتيه من داخل المدينة نفسها، ومن أحد قواده.

ويبدو أن بوهيموند كان يجيد أعمال المخابرات، والتسلُّلِ إلى داخل صفوف العدوِّ، فقد كانت هذه فرصته الأخيرة ليعزز مركزه داخل حلقة الأمراء والقادة الصليبيين. واستطاع عن طريق بعض الأرمن أن يتصل بأحد رجال ياغى سيان داخل المدينة، وكان اسمه فيروز.

كان فيروز أرمنيا اعتنق الإسلام، وأصبح قريباً من ياغى سيان، وتولَّى منصباً كبيراً فى حكومته. ولكن حادثاً غريباً جعل فيروزاً يحقد على سيده الذى ظن أنه وراء خيانة زوجته له. وهذه الخيانةُ جعلت الأرمنىَّ المسلم يفقد رشده، ويمتلئ حقداً ورغبة فى الانتقام. ولو كان هذا عن طريق فتح إنطاكية نفسها أمام الصليبيين، لعلَّه بذلك يشفى صدره من الحقد الذى عشش داخله.

وتمت الاتصالات بين بوهيموند وعميله فى سِريَّةٍ تامة، وكتمان شديد.

كان فيروز يعرف ما هو المصير الذى سيلقاه لو افتضح أمره. وكان بوهيموند يخفى صفقته عن عيون زملائه الآخرين من قوَّادِ الحملة.

وعندما ضاق الحال بالصليبيين، وضجوا من طول الحصار، جاءهم الفرج فى الوقت المناسب، لأن أحد الحُكّام الأتراك كان يزحف نحو المدينة فى جيش كبير، أثارت أنباء زحفه الرُّعبَ فى قلوب الصليبيين.

اتَّصلَ فيروز مع بوهيموند وحدد له المكان الذى يستطيع ان يتسلَّلَ منه إلى داخل إنطاكية.

وبعد سبعة اشهر من الحصار، وفى ذات ليلة سوداء كئيبة ليلة ٣ يوليو (حزيران) ١٠٩٨ استولى الصليبيون على إنطاكية. ولم يتركوا بالمدينة أحداً حيا من الأتراك. كما نهبوا بيوت ساكنيها، مسيحيين كانوا أو مسلمين. ونهبوا كنوز انطاكية وقتلوا من أهلها ما ملأ شوارعها بالدم والجُثث، جثث الرجال والنساء والأطفال.

وتمكن ياغى سيان من الهرب، وترك أهله وأولاده وأمواله فى إنطاكية، "فلما بعد عن البلد، ندم على ذلك، فنزل عن فرسه، وحثى - أهال - التراب على رأسه. وبكى ولطم، وتفرق عنه أصحابُه، حتى إذ ما بقى وحده، مرَّ به رجل ارمنى حَطَّابٌ فعرفه. وقام بقتله قبل أن يحمل رأسه إلى صنجيل ملك الفرنج".

وقتل فيروز روحته الخائنة، لكنه لم يحصُلْ من بوهيموند على ثمن خيانته الذى وعده به. وبذلك تختفى أخبار فيروز ولا تستمر، لأن عمر الخيانة دائما قصير.

■ الحربة المقدسة

كان "بركياروق"، أو كربوغا كما يسميه الغربيون، حاكم الموصل أهم حاكم فى منطقة الجزيرة.

وقد خرج على رأس جيش كبير يريد فك الحصار عن إنطاكية. وتحالفت معه جيوش إسلامية وعربية أخرى. ولكن بركياروق وقف بجيشه عند الرها يريد تحريرها حتى يحمى ظهره عندما يتوجه إلى إنطاكية، وفشل فى ذلك، فتوجه نحو إنطاكية. ولكنه وصل متأخراً. وبلغ المدينة بعد سقوطها بيومين فى يد الصليبيين.

كان الصليبيون عندئذ مُتعَبين، ومشغولين فى تطهير المدينة وشوارعها من الجُثَثِ. وأجَّلَ بركياروق الهجوم، ونصب حصاراً محكما حول إنطاكية، التى كانت قلعتها لا تزال فى يد المسلمين.

هذا الحصار زاد الصليبين ضعفاً. وحينما بدأ الطعام ينفذ مرة أخرى، انحطَّتْ روحهم المعنوية، وسيطر عليهم اليأس. وزادهم يأساً أن الإمبراطور البيزنطىَّ الكسيوس كومنين الذى جاء لإنقاذهم،عاد من الطريق لأن أحد الأمراء الصليبيين الذى كانوا قد فروا من أمام إنطاكية قبل سقوطها، أخبره أن المسلمين استولوا عليها مرة أخرى. وقد زاد هذا الحادث من كراهية الصليبيين للبيزنطيين.

ضاق الخناق على الصليبيين. ولم ينقذهم إلا خلاف ثار بين جيوش المسلمين والعرب.

وفى مثل هذا الظروف لم تفارق الأوربيين الاعتقادات التى كانت سائدة بينهم فى تلك الفترة، أى فى العصور الوسطى، وهى اعتقادات آمنت بالأساطير والرؤى والأحلام.

فبينما كانوا فى هذا الوقت، راجت حكاية الحربة المقدسة، وقال أحد الصليبيين واسمه بطرس بارثولوميو إن قديسا جاءه فى المنام عدة مرات وقال له: "إن الحربة التى طعن بها السيد المسيح عليه السلام مدفونة فى كنيسة القديس بطرس فى إنطاكية". وطلب القدِّيسُ من بطرس بارثولوميو أن يخبر الصليبيين بذلك ويقول لهم: "إن جميع القديسين سيحاربون معكم، ولن تهزموا أبدا ما دمتم تحملون هذه الحربة".

ويسخر مؤرخ عربىٌّ من هذه الحكايــة ويقول: "إن ريموند هو الذى دبَّرَ الأمر مع بطرس، وجعله يدفن الحربة سراً فى الكنيسة ثم يذيع الادعاء عن القديس الذى جاءه فى منامه".

وكان ريموند من أكثر المتحمسين لرؤيا بارثولوميو الذى كان مجرد نموذج لما شاع عندئذ من رؤى وأحلام فى صفوف الصليبيين. فادَّعى البعض أنه رأى السيد المسيح وهو يقظ، وغير ذلك.

وتم البحث عن الحربة المقدسة. وعثر الصليبيون على حربة فى باطن الأرض، كان لها تأثير السحر فى رفع همتهم. ولم يشأ أحد أن يكذِّبَ الواقعة حتى لا يضيع فعلها، بينما مضى بارثولوميو يضيف حكايات أخرى عن زيارات القديس "اندرياس" له وإرشاداته للصليبيين الذين كانوا فى ظل الحصار الخانق قابلين لتصديق كلَّ ما يعطيهم أملاً، وحلما بالخروج من الحصار سالمين. فما بالنا إذا كانت رؤى بارثولوميو تبشرهم بنصر كبير على المسلمين.

خلال ذلك، تزايدت الخلافات داخل معسكر بركياروق، فانسحب وتراجَعَ مَنْ تراجع، ورفض أمير حلب أن يَنضمَّ بجيشه إلى المقاتلين. وعبَّأ بوهيموند قواته، وخرج بهم على المسلمين والعرب فألحق بهم الهزيمة.

وأصبحت إنطاكية فى يد الصليبيين. وثارت عندئذ مسألة لمن تكون الإمارة؟ .. هل تعود إلى الإمبراطور البيزنطى؟ أم تبقى بيدا أمير صليبى؟ وأىُّ أمير هذا؟!

اشتد الخلاف بين بوهيموند وريموند أمير تولوز، فكلٌّ منهما طامعٌ فى إنطاكية ولا يريد واحد منهما أن يغادر المدينة. بوهيموند رأى ان هذا حق له بسبب دوره فى تحقيق النصر، أما ريموند فنادى بأن تعود المدينة إلى البيزنطيين، أى حرمان بوهيموند منها.

استمرَّ الخلاف والألاعيب بين الأميرين الصليبيين خمسة أشهر. وفى النهاية ضاق الجنود ورجال الدين والحجاج بهذه المناورات الصغيرة وضَجُّوا

قائلين: "كفى ما لقيناه من متاعب حتى الآن، واحذروا إما أن نبدأ السير إلى القدس وإلا فسنحرق إنطاكية.

أثار الإنذار مخاوف كلّ من بوهيموند وريموند وأنصار كل فريق منهما. وتحرك الركب الصليبى فى نوفمبر (تشرين الثانى) قاصداً القُدسَ. ولكن بهيموند كان يدبر فى نفسه أمرا. وفى الطريق عاد إلى إنطاكية، واستولى عليها فى يناير (كانون الثانى) ١٠٩٩.

وبعد ١٤ شهراً من المناورات والمؤامرات حقّقَ بوهيموند حلمه، وأقام الإمارة الصليبية الثانية فى الشرق، إمارة إنطاكية.

بطرس بارثولوميو

قدم مع الحملة الصليبية فى خدمة أحد الحجاج، وعرفه زملاؤه فى الحملة بسوء السمعة، والحرص على الملذات. وبعد ما زعمه عن الحربة المقدسة، تحدّث عن رؤى كثيرة، تضمنت إحداها هجوماً كبيراً على "أدهيمر" أسقف بويه الذى كان مندوب البابا فى الحملة، بعد وفاته. كما تضمنت دفاعاً وتأييدا لرغبات ريموند فى الفوز بإنطاكية. وكثرة الرؤى أثارت الشكوك بين الصليبيين فى مدى صحتها. ولكن بطرس اعتقد أن الوَحىَ ينزل عليه. وحاول أن يدلِّل على ما يقول، فحمل الحربة وقفز فوق نار مشتعلة، فكاد يسقط فيها. بقى بعدها اثنا عشر يوما يعانى الآلام، وأخيرا تُوُفِّىَ متأثراً بجراحه.

■ الانحطاط العربىّ

إن تاريخ هزائم العرب، قديماً وحديثاً، هو تاريخ خلافاتهم، فما اختلفوا إلا انهزموا، أياً كانت أسباب هذه الخلافات.

وقصة الانتصارات التى أحرزها الصليبيون هى ـ بصفة عامة ـ قصة الخلافات بين العرب والمسلمين.

فقد جاء الصليبيون إلى المشرق العربىّ فى وقت بَلغتْ فيه الخلافات بين العرب والمسلمين حداً غير معقول، واختفت من حياتهم مظاهر الوحدة فى السياسة والاقتصاد، بل وفى الدين، فقد اشتدَّ فى ذلك الوقت الخلاف بين الشيعة ممثلين فى الدولة الفاطمية وبين السُنَّةِ ممثلين فى السلاجقة الأتراك وفى بقايا الخلافة العباسية فى بغداد.

وعندما بدأ الصليبيون زحفهم على الشام، كانت البلاد الشامية عبارة عن إمارات متنافسة ومتصارعة، كل منها مستقلة عن الأخرى، وتطمع فى أن تتوسَّعَ وتمتدَّ على حسابها. وكانت بعض هذه الإمارات عبارة عن مدينة أو قلعة تتبعها عدة حصون أو قرى، فهناك حلب، ودمشق، والموصل، وحِمْصُ، كلّ منها إمارة قائمة بذاتها، لها أميرها وجيشها، وخزانتها، ولكل أمير سياسة خاصة وتحالفات خاصة.

وحتى عندما كان بعض الأمراء الأشقَّاءِ يحكمون ولايتين أو أكثر، لم يكن ذلك يعنى هدنة بينهما أو سلاماً. فقد كانت الخلافات والمنافسات تدور بين الأخوة الأشقاء وبعضهم من حكام الولايات والإمارات.

وفى عام ١٠٩٦، ١٠٩٧، عام بِدءِ الزحف الصليبىّ من غرب أوربا، كانت هناك حرب أهلية فى الشام بين حاكمى حلب ودمشق وهما شقيقان، طمع كل منهما فى الاستيلاء على إمارة الآخر، وطرده منها، وزحف "رضوان" ملك حلب وحارب أخاه الملك "دقاق" ملك دمشق.

وتحالف رضوان عندئذ مع ياغى سيان أمير إنطاكية الذى ما لبث أن تخلى عنه، وناصر ملك دمشق، وأغراه بأن يهاجم شقيقه فى حلب، ولكنه فشل.

ولم ينس رضوان هذه الخيانة من ياغى سيان، وعندما وصلت جيوش الصليبيين إلى إنطاكية، استنجد برضوان ملك حلب، فلم ينجده بسبب موقفه السابق. أما بركياروق أمير الموصل فقد خرج لمساعدة إنطاكية ظناً منه أن هذه فرصته لتطويق حلب ثم الاستيلاء عليها. وتحالف معه دقاق نكاية فى أخيه!!

ولم تكن أحوال الفاطميين فى مصر والشام أفضل من هذا. فقد اشتدَّ الخلاف بين الفاطميين وبعضهم وأصبح الخليفة شخصاً لا حول له ولا طول. وأصبحت السلطة الفعلية فى يد الوزراء واتَّخذَ الوزراء من الخلفاء ألعوبة.

وفى الوقت نفسه تزايدت حدة المنافسة بين الحاكمين، طمعاً فى منصب الوزارة. وتعددت الخلافات لهذا السبب. وثار الأبناء ضِدَّ الآباء، طمعاً فى وراثة مناصبهم، والاستيلاء على وظائفهم. فقد حاول أحد أبناء الوزير الفاطمى "بدر الجمالى" قتل والده، حتى ينفرد بالوزارة بعده.

وعلم الوالد بما يدبره الابن، فقتل أنصاره، واعتقله، ثم دفنه حياً!!

وقائع غَرِيبةٌ، وغير معقولة، ولكنها حدثتْ، وسجَّلها التاريخ، وكان لها أثرها فيما أحرزه الصليبيون من انتصارات.

وإذا كان هذا قد حدث داخل البيت الواحد الحاكم، فليس معقولاً أن تكون العلاقات بين الأُسَرِ الحاكمة وبعضها علـى صُورةٍ غير هذه الصورة. لقد كانت أسوأ.

فقد استولى السلاجقة فى عام ١٠٧١ على فلسطين من يد الفاطميين، وطردوهم منها. وبعد ذلك بعدة سنوات، أقام الحاكم السلجوقىُّ مذبحةً فى القدس التى ثارت ضِدَّ حكمه، وأعلن أهلها أنهم تابعون للفاطميين. ولم تخضع المدينة لهذا

الحاكم إلا نتيجة لهذه المذبحة. وبعد ذلك، وفى عام ١٠٧٧ حاول هذا الحاكم غزو مصر للقضاء على قاعدة الحكم الفاطمىً، لكنه فشل.

ومن هنا، ليس غريباً القول بأن الفاطميين شَجَّعوا الصليبيين على غزو الشام، ظناً منهم أن هذا سيضعف أعداءهم السلاجقة.

وكان الإمبراطور البيزنطىُّ الكسيوس كومنين يدرك عمق الخلافات بين الفاطميين والسلاجقة، وقد نصح الصليبيين بأن يحاولوا الاتصال بالفاطميين، والتحالف معهم.

ومن الثابت أن الفاطميين أرسلوا "بعثة دبلوماسية" إلى الصليبيين بينما كان هؤلاء يحاصرون إنطاكية.

أرسل هذه البعثة الوزير الفاطمىُّ "الأفضل الجمالى" الذى كانت بيده مقاليد الحكم.. وكان الخليفة الفاطمى "المستعلى" طفلاً.

وقد استقبل الصليبيون سفارة الأفضل استقبالاً ودياً حسناً. واستضافوا أعضاءها بضعة أسابيع ولكنهم لم يقطعوا برأى فى الاقتراح الذى حملته البعثة من القاهرة. إذ عرض الأفضل الجمالىُّ على الصليبيين أن يكون لهم شمال الشام، وتعود فلسطين إلى الحُكمِ الفاطمىِّ. ولم يدرك الوزير الفاطمىُّ أن فلسطين كانت الهدف، وأن الانتصارات التى حققها الصليبيون حتى ذلك الوقت زادتهم طمعاً فى التوسُّع وزادتهم أملاً فى الحصول على القُدسِ بسهولة، ولم يفكر الصليبيون فى مساعدة الفاطميين على استرداد فلسطين.

وإذا كان الأفضل قد انتهز الارتباك الذى أصاب السلاجقة لانشغالهم بمقاومة الصليبيين وتمكَّنَ من استعادة فلسطين فى عام ١٠٩٨ فإنه لم يقطع حبل الأمل فى التعاون مع الصليبيين. وأرسل إليهم فيما بعد وهم قرب طرابلس فى طريقهم إلى القدس يعرض عليهم نوعاً من المصالحة، ويعدهم بتسهيل الحَجِّ إلى البلد المُقدَّس. فلم يستجيبوا لذلك.

ويبدو أن الأفضل وأمثاله ـ قديماً وحديثاً ـ لا يدركون أن أىَّ قوة تغزو هذه المنطقة لا تريد حلفاء بل تريد تابعين يخضعون لها، ويقبلون هدفها فى فصل مصر عما شرقيها، وإبعادها عن فلسطين لتبقى مصر ضعيفة ومُزعزعةً، يسهل غزوها والسيطرة عليها.

أما الصليبيون فقد كانت أهدافهم واضحة ومحدَّدةٌ. حتى أنهم فكَّروا منذ يونيو ١٠٩٩ وهم فى الرملة الفلسطينية أن يتقدموا لمواجهة "العدوَّ الحقيقىَّ" وهو مصر، بدلاً من الهجوم على القدس فى الصيف. وقد رُفضَتْ هذه الفكرةُ عندئذ، ولكن طرحها فى ذلك الوقت كان له مغزاه، لمن يفهم أحداث التاريخ ويعرف مبادئ الجغرافيا.

ولم تقفْ حقيقة الخلافات الإسلامية والعربية فى انحطاطها عند هذا الحد فقط. فقد كان هناك ما هو أكثر غرابة، وتمثل ذلك فى ظهور طائفة غريبة هى طائفة "الحشَّاشين" الذين امتهنوا القيام بأعمال انتحارية مختلفة ضِدَّ العديد من الزعماء. وتعاونوا مع بعض الحكام ضد أعدائهم. وقد اعتنق حاكم حلب الأمير رضوان مذهبهم واستعان بهم فى تحقيق أغراضه.

وفى بعض الحالات تعاون هؤلاء الحشاشون مع الصليبيين، وفى حالات أخرى عملوا ضدهم واغتالوا بعض قادتهم!!

ويظهر الدور الكريه الذى قامت به هذه الطائفة فى القرن الثانى عشر، فمن الملاحظ أن قوتهم زادت وعلا شأنهم حينما استقرَّ الصليبيون فى الشَّام.

ولم يكن هذا الواقع السياسى فى البلاد الإسلامية بعيداً عن أنظار الصليبيين، بل كانوا يعرفونه جيداً، فحاولوا استغلاله لمصلحتهم، كما لعبوا بهذه الخلافات، وحاولوا إشعالها، فتقربوا إلى بعض الحُكَّام على حساب البعض الآخر، وكسبوا هُدنةً مع هذا الحاكم أو ذاك، حينما كانت هذه الهدنة فى صالحهم، أى صالح الصليبيين.

وبعد سقوط إنطاكية واستئناف الصليبيين لزحفهم نحو فلسطين، لقوا ترحيباً

من بعض الحكام، كما سارع آخرون بتقديم فروض الطاعة والولاء لهم، مقابل فرض الحماية الصليبية عليه. فقد كان أمثال الأفضل الجمالى كثيرين بين الحكام العرب والمسلمين فى ذلك الوقت.

ومن ذلك، أن ابن عمر أمير عزاز ـ وهى مدينة بين الرها وإنطاكية ـ استعان بالصليبيين ضِدَّ رضوان حاكم حلب، ولعبت العِلاقاتُ النسائية دوراً فى هذا الشأن، واستجاب الصليبيون لأبن عمر، فتراجع رضوان عن المدينة. وكسب الصليبيون ولاء ابن عمر، وتبعيته لهم.

وفعل أمير حمص حماه ـ وهما تركيان ـ شيئا شبيها بذلك، إذ تخلَّيا عن المقاومة، والتزما السكون إزاء الزَحفِ الصليبىِّ نحو فلسطين.

أما بنو منقذ فى شيزر وبنو عمار فى طرابلس ـ وهم عرب ـ فمدوا يد العون للصليبيين، قدَّموا لهم من يدلهم على الطريق، وباعوا لهم الأطعمة بأسعار رخيصة، فى مقابل ألا يهاجمهم الصليبيون ولا يتعرضوا لهم بأذى.

وفعل هذا كثيرون من المسلمين والعرب، على طول الطريق الذى سلكه الصليبيون من إنطاكية إلى القُدسِ.

ومن خلال عيوب العرب والمسلمين، ومن خلال خلافاتهم ومنافساتهم، تسرب الصليبيون إلى المقدس.

■ حصارُ القُدسِ

فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٠٩٨ خرج الصليبيون من إنطاكية قاصدين فلسطين، وكان زحفهم غير شاقٍّ. إذ كانت المقاومة التركية ضعيفة ومتفرقة، وكان الصليبيون فى عجلة من أمرهم، ويتولى قيادتهم "ريموند دى سان جيل" كونت تولوز أو "الصنجيلى" كما أطلقَ عليه العَربُ.

وإزاء ضعف المقاومة الإسلامية العربية، ومع الرغبة فى الوصول السريع إلى القدس، فضّل الصليبيون أن يتركوا وراءهم حصوناً وقلاعاً إسلامية دون أن يفتحوها. وكان تقديرهم أن استيلاءهم على القدس سيجعل مثل هذه الحصون والقلاع تخضع لهم دون حاجة إلى حرب أو قتال.

كما أن خوف الصليبيين من أن ينفد ما معهم من طعام وزاد، جعلهم يسرعون نحو هدفهم الأقصى وهو القدس، زهرة المدائن. وكان ريموند حريصاً على الحفاظ على رجاله الذين تناقصوا إلى حدٍّ كبير، وخشى أن يتناقصوا أكثر لو تركهم يخوضون معارك متفرقة ومتقدمة.

وكان الهدف الصليبىُّ قد بات واضحاً أمام العرب والمسلمين، ولكنهم حتى ذلك الوقت لم يستعدوا لمواجهة جادة تمنع المعتدين من تحقيق هدفهم.

فقد خرج الصليبيون من إنطاكية قاصدين فلسطين، ودخلوا فى أملاك الدولة الفاطمية، ومع ذلك بقى الفاطميون ساكنين ولم "ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر.. مع قدرته على المال والرجال"، ثم أحرز الصليبيون ما أحرزوه من انتصارات قبل الوصول إلى القدس "وعساكر مصر لم تَتَهيأ للخروج".

وعندما حاصر الصليبيون طرابلس، انتظر أهلها نجدة بحرية تأتيهم من الأفضل الجمالى. ولم يَطُلْ انتظارهم، فجاءهم من الخليفة الفاطمىِّ رسول يطلب جارية جميلة من أهل المدينة، كما طلب نوعاً من الخشب يصلح لصناعة آلات الطرب!

ولم يكن أمام أمير طرابلس مَفرّ من الاستسلام، وأعطى لريموند ١٥ جوادا و١٥ ألف دينار، وأمدَّ الجيش كُلَّه بدواب الحمل.

وسار أمير بيروت على طريق زميله أمير طرابلس. وفعل ذلك أيضا أمير عكّا. واشترى كلّ منهم الأمان لإمارته مقابل شروط معينة فرضها الصليبيون.

وتوجَّه الصليبيون إلى الرملة واحتلُّوها. كما استولوا على بيت لحم، المدينة التى وُلِدَ بها السيد المسيح عليه السلام. وأضحوا على مشارف زهرة المدائن، التى بلغوا أسوارها يوم الثلاثاء ٧ يوليو (تموز) ١٠٩٩.

مدينة الأنبياء والقديسين حصينة منيعة. أسوارها عالية. وأبراجها متعددة. وهى واحدة من أضخم الحصون فى العصور الوُسطَى.

واتَّخذَ "افتخار الدولة" الحاكم الفاطميُّ للمدينة عدَّته لمواجهة الحصار. وطلب النجدة من مصر، فقد كان عدد قواته قليلاً فى مواجهة القوات الصليبية التى بلغت ٤٠ ألف رجل وامرأة.

أحسن افتخار الدولة ورجاله الصمود، بقدر ما كان فى إمكانهم. وليس من العروبة فى شئ ذلك الذى تكون القدس فى يده ويفرط فيها، أو يتنازل عنها. وما يصدق على القدس يصدق على فلسطين كلها، بقراها ومدنها، ويصدق على كل شبر من أى أرض عربية. وإذا كانت القُدسُ مدينة مقدسة، فإن كل أرض الوطن العربى لها قدسيتها واحترامها. فأرض الوطن هى عرضه، ومن يفرِّطُ فى عِرضِه. ومن يَتَخاذلُ فى الدفاع عنه - تحت أىِّ دعوى - يتخاذل فى الدفاع عن عرضه وشرفه وكرامته.

وقد وعى افتخار الدولة ورجاله ذلك. واحتملوا الحصار أربعين يوماً كاملة، ومِنْ حولهم العرب والمسلمون مشغولون بخلافاتهم، لاهون فى ملذاتهم، ولم يستطيعوا أن ينسوها من أجل القُدسِ، زهرة المدائن.

■ وسقطت زهرة المدائن

كثيرة هى الأحزان. وفى كُلِّ مرة استولى فيها عدوٌّ للعرب على زهرة المدائن تجدَّدتْ كلُّ الأحزان العربية.

فى ١٤ يوليو (تموز) ١٠٩٩ الموافق ١١ رمضان ٤٩٣، تراجع المدافعون عن أسوار القدس. وتهاوت حصون المدينة. وتسرَّبَ الصليبيون إلى داخلها. وسقطت القدس.

وفى مدينة المسيح، لم يعمل الصليبيون بآداب المسيح، ولم يحفظوا قداسة المدينة، وفعلوا كل ما يجافى مبادئ المسيحية، ويتنافى مع تعاليم المسيح.

أقاموا فى مدينة المدائن مجزرة. أحالوها إلى بركة من دماء، فى واحدة من أشد المذابح بربرية ووحشية فى تاريخ العالم، قديماً وحديثاً. قتل الصليبيون فى القدس ما لا يحصى ولا يُعدُّ من سكَّانِ المدينة، من المسلمين واليهود.

لاذ بعض أهل المدينة بالمسجد الأقصى، ظنوه حصنا آمنا، فيه ترتفع الصلوات باسم الرب، ويبتهل المصلون إليه. وظنوا أن هؤلاء جاءوا حقا فى سبيل الله، وباسم الصليب.

كانوا بسطاء ساذجين، وفى داخل بيت الله ذَبَحَ الصليبيون ٧٠ ألفا كلهم من المدنيين، غير المقاتلين، وبعضهم من الأئمة وعلماء الدين، وأكثرهم من الضُعفاءِ، من الشيوخ والنساء والأطفال.

ارتكب الصليبيون كلَّ هذا باسم الصليب، وهو ليس من الصليب فى شئ. فقد جزوا الرءوس، والقوا بالكثيرين فى النيران. وتكدَّستْ فى شوارع القدس أكوامٌ من الرءوس والأيدى والأقدام.

فى شوارع القُدسِ انطلق الصليبيون كالمجانين أو مجانين بالفعل، تحت تأثير الجوع والتعب الذى عاشوه منذ خرجوا من بلادهم فى غرب أوربا. إنها شهوة الانتقام، وواحد من أبشع مناظر العنف الجماعى فى التاريخ. تحولَ فيه القتلة إلى حيوانات لا تتمتع إلا بحُبِّ سفك الدماء، والقتل، ولا شئ أكثر من هذا.

ونصب الصليبيون المذبحة لمدَّة أسبوع كامل، حتى يرووا ظمأهم إلى الدم، وحتى يُفرِّغُوا شحنة التعصُّب والعداء التى ضخَّمَها العذاب الذى لا قوه.

أسبوع كامل والقدس مباحة، مستباحة. نساؤها وأطفالها، شبابها وشيوخها، جنودها ومدنيوها، فى مزاد للقتل نصبته الوحشية، وصنعه التعصُّبُ المَقيتُ.

ولم يكن كل هذا من الصليب فى شئ. ما حدث فى القدس باسم الصليب كان ضد الصليب، وكان وصمة عار كبيرة فى تاريخ الحملة الصليبية الأولى، وفى تاريخ الحروب الصليبية كلها، وفى تاريخ البشرية.

وعار هذه المذبحة لن ينتهى إلا يوم تصبح القدس عاصمة فلسطين ديمقراطية يعيش ويتعايش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون، يقفون على قدم المساواة فى الحقوق والواجبات، لكل منهم ما للآخر، وعليه ما على الآخر. وطوبى للذين يدافعون عن ذلك، لأنهم يمسحون بنضالهم ومواقفهم كل عار صنعه الآخرون بزهرة المدائن، مدينة الأنبياء والقديسين، مدينة الصخرة والأقصى والقيامة، وجميعها لم تسلمْ من نهب الصليبيين ولا أذاهم، فقد "أخذوا من الصخرة والأقصى سبعين قنديلاً منها عشرون ذهباً، فى كلِّ قنديل ألف مثقال، ومنها خمسون فضة فى كل قَنديلٍ ثلاثة آلاف وستمائة درهم بالشامى، واخذوا تَنُّوراً - فرنا - من فضة زنتُه أربعون رطلا بالشامى، واخذوا من الأموال ما لا يُحصَى".

ولك الله يا مدينة المسيح الذى أوصى أتباعه بقوله: لا تسرق، لا تقتل !!

■ حامي بيت المقدس

يوم سقطت القدس، تراجع الحُبُّ. ولكن العرب، المسلمين لم يتراجعوا عن السير فى خلافاتهم، ولم يستطيعوا ـ عندئذ ـ أن يتجمعوا ويقفوا وقفة واحدة من أجل القدس.

اهتز الغرب فرحاً بالاستيلاء على القُدسِ، واستولى الفزع والرُعبُ على قلوب العرب والمسلمين. وتداعت وتساقطت المُدنُ والحصون العربية الأخرى فى فلسطين مثل نابلس وغيرها.

وإذا كان بركياروق قد جاء إلى إنطاكية متأخراً، ووجدها بيد الصليبيين فحاصرهم، فإن الأفضل خرج من مصر بعساكره، ولكنه فعل ذلك بعد فوات الأوان، فقد بلغ عسقلان فى ٤ أغسطس (آب) بعد أن كانت القدس قد هَوتْ بيد الصليبيين.

ولكن الأفضل لم يستطِعْ أن يفعل ما فعله بركياروق. فلم يصل إلى أسوار القدس، ولم يَتجاوزْ عسقلان، حيث أسرع الصليبيون وتقدَّموا نحوها، والتقوا بجيش الأفضل وهزموه.

وبهذا النصر، قضى الصليبيون على قُدرَةِ الفاطميين بفلسطين على المقاومة، وبقوا فى مصر يسمعون ويرون سقوط المُدنِ الفلسطينية واحدة بعد الأخرى فى يد الصليبيين.

وأحيانا كان الفاطميون يحاولون إرسال سفنهم فى البحر لمساعدة هذه المدينة الفلسطينية أو تلك ضد حصار الصليبيين، ولكن أساطيلهم كانت تخرج وكأنها ذاهبة للنزهة، تتوقف أياماً أمام غزة وعسقلان وصور وصيدا وعكا ثم تعود.

أما الصليبيون، فإن انتصارهم "الوحشى" فى فتح بيت المقدس لم يضعْ نهاية لخلافاتهم، بل فتح الباب لاشتعالها، خاصة بين جود فرى دى بويون، وريموند سان جيل أو الصنجيلى.

وفى ٢٢ يوليو (تموز) ١٠٩٩ اختار الصليبيون جود فرى دى بويون وصياً على بيت المقدس. وكان اختياره موضع القبول من رجال الدين والأمراء الذين قادوا الحملة الصليبية. ويرجع هذا إلى اعتقادهم أن ضعف شخصيته لن يجعله مسيطراً عليهم، ولن يغريه على تجريدهم من السلطة والنفوذ.

رفض جودفرى أن يحمل لقب "ملك" واكتفى بلقب "حامى بيت المقدس"، ورفض أن يضع تاج الملك فوق رأسه، وقال: "لا أضع على رأسى تاجاً من الذهب فى المكان الذى وضع فيه على رأس المسيح تَاجٌ من الشوك".

وبعد هذا بأسبوع اختار الصليبيون فى بيت المقدس بطرقاً للمدينة هو أرنولف مالكورن الذى حاول أن يحول وبسرعة هذا الكرسى إلى كُرسى لاتينى بدلاً من الأرثوذكسية.

طرد أرنولف القسس الأرثوذكس من كنيسة بيت المقدس، وأحل مكانهم قسساً من الكاثوليك. وتفرق القسس الأرثوذكس، وخضع المسيحيون الوطنيون مُرغَمين لإرادة البطرق اللاتينى.

ولكن الخلافات الصليبية بين أمراء الحملة وفرسانها، انتقَلَتْ أيضاً إلى رجال الدين منهم. وبعد فترة قصيرة من تولية أرنولف بطريركية بيت المقدس، وصل دايمبرت رئيس أساقفة بيزا إلى اللاذقية مبعوثاً وممثلاً للبابا، بعد وفاة مندوبه السابق أدهمار، أمام أسوار إنطاكية. واشتَرَكَ المبعوث البابوى الجديد فى حصار اللاذقية وتَحالفَ فى ذلك مع بوهيموند أمير إنطاكية.

وخرج دايمبرت وبوهيموند ومعهما بلدوين أمير الرَّها قاصدين القُدس. وبلغوها فى ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٠٩٩. وترتَّب على ذلك عَزلُ أرنولف وتنصيب دايمبرت بطرقاً على بيت المقدس، فى أواخر الشهر نفسه. وعندئذ ركع أمامه جودفرى طالباً تقليده حكم بيت المقدس، وركع بوهيموند طالباً تقليده حكم إنطاكية.

ولم ينس أرنولف إهانة تنحيته من بطريركية المدينة المقدسة. أما دايمبرت فقد نازع جودفرى بعض سلطاته. ولكن الموت عاجل "حامى بيت المقدس" وتُوُفِّىَ جودفرى دى بويون متأثراً بحُمَّى أصابته.

■ بلدوين الأول

كانت فترة حكم جودفرى قصيرة وقلقة، ولكن وفاته فتحت الباب للبحث عن خليفة. وكان هناك أكثر من مرشَّحٍ، أى أكثر من طامع فى المنصب. هناك

بوهيموند أمير إنطاكية. وهناك دايمبرت ورغبته فى إقامة دولة دينية. ولكن المناصرين لفكرة الوراثة دعوا بلدوين أمير الرَّها وشقيق جودفرى إلى الحضور لتنصيبه ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية.

وفى عيد الميلاد فى ديسمبر (كانون الأول) ١١٠٠ وضع البطرق دايمبرت تاج مملكة بيت المقدس على رأس بلدوين ليكون أول ملوك هذه المملكة ويحمل لقب "بلدوين الأول". واتسعت حدود المملكة بضم الجليل وحيفا وطَبريَّة إليها، بعد أن غادرها أميرها تنكرد وذهب إلى إنطاكية ليكون وصياً عليها فى غياب خاله بوهيموند الذى أسره الأتراك.

وبتنصيب بلدوين ملكاً على بيت المقدس، سكنت قليلاً عواصف الخلاف بين الصليبيين وبعضهم. وساعد هذا بلدوين فى عملية بناء الدولة، والتغلُّب على الأزمة التى نتجت عن عودة أعداد كبيرة من الصليبيين إلى أوربا، عقب سقوط القدس فى أيديهم. فقد اعتقدوا أنهم أدَّوا رسالتهم، وأوفوا بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم بإعادة قبر السيد المسيح، وإنقاذه من يد المسلمين.

وفى الوقت نفسه تَنَاقصتْ أعداد الحُجّاجِ إلى بيت المقدس من أوروبا. وبدت الأراضى التى استولى عليها الصليبيون شبه خالية من السكان.

وعمل بلدوين على علاج هذا الخلل فى بناء دولته. وسعى إلى دعوة المسيحيين ـ على اختلاف طوائفهم ـ فى المناطق المُجَاورةِ للهجرة إلى بيت المقدس. فى نفس الوقت الذى طرَدَ فيه المسلمين من المدينة.

وحاول أن يزيد من درجة الاندماج بين هؤلاء المسيحيين الوطنيين الشرقيين وبين الصليبيين الأوروبيين الغربيين، فدعا إلى عقد زِيجاتٍ مشتركة بين الشرقيين والغربيات، وبين الغربيين والشرقيات. وجعل نفسه قدوة فى ذلك فتَزوَّج بمسيحية شرقية.

وكان بلدوين الأول هو القائد الصليبى الذى وضع الأُسسَ لسياسة التوسع الصليبية فى المنطقة، وعمل جاهداً على أن يضُمَّ لإمارته أو مملكته الأرض التى تعطيها وزنها كدولة تستطيع أن تعتمد على نفسها، وتحافظ على مصالحها، وتحدِّدُ مبادئ تَعامُلِها مع جيرانها.

اهتم بلدوين بمسألة حدود دولته، سواء حدودها البحرية أو البرية. أراد أن يستولى على كُلِّ المدن والموانى الفلسطينية واللبنانية على ساحل البحر المتوسط. وفى البر، أراد لها حدوداً ملائمة، يسهُلُ الدفاع عنها، وتساعد فى حماية عُمْقِ هذه الدولة، كما تساعد - أى الحدود البرية - فى الاستفادة من قُربِ مملكة بيت المقدس من طُرُقِ التجارة فيما بين العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر.

ولتحقيق هذه الأهداف الاقتصادية والعسكرية، اتَّبَعَ بلدوين سياسة بناء القلاع والحصون على حدود دولته، وهى شبيهةٌ إلى حدٍّ ما بسياسة إقامة المستعمرات الإسرائيلية.

أدرك بلدوين أن فلسطين تكون دائماً عُرضَةً للغزوٍ من الجنوب الشرقىٍّ، أى عن طريق النقب. ورأى ضرورة السيطرة على المنطقة الممتدة بين البحر الميت وخليج العقبة، لقطع طريق الاتصال بين مصر والدول الواقعة إلى شرقيها. فقد رأى مَلِكُ بيت المقدس أن مصر هى الخطر الحَقيقىُّ على دولته، وآمن مثل غيره من الصليبيين بأن "مفتاح بيت المقدس فى مصر".

ولتحقيق هذا، احتلَّ بلدوين وادى عربة، وهو الوادى الصلب الذى يمتد من البحر الميت إلى خليج العقبة. وفى بقعة تبعد نحو ١٠٠ ميل عن أقرب مكان يحتلُّه الصليبيون، أقام بلدوين حِصنَ الشوبك، وجعل فيه حامية عسكرية، وملأه بالذخائر.

وإلى الجنوب من الشوبك امتدَّ بلدوين إلى العقبة على ساحل البحر الأحمر، واحتل "إيلة" وأنشأ بها قلعة، كما شيَّد قلعة أخرى فى جزيرة فرعون. وبذلك أصبحت الطُرُقُ التى تَصِلُ بين دمشق وشبه الجزيرة العربية ومصر فى يد بلدوين.

ولما كانت مناوشات المصريين ضِدَّ الاحتلال الصليبيِّ لفلسطين لم تتوقف، فكر بلدوين فى أن يردع المصريين فى دارهم. وقاد جيشاً صغيراً، واجتاز الطريق الساحلىَّ الشمالىَّ لسيناء، ووصل إلى الفرما، وهى المركز الأمامى للدفاع عن مصر من هذه الجهة، واقترب من دلتا النيل، وأُصيبَ بلدوين عندئذ بمرض قاتل. وعاد إلى فلسطين ومات فى الطريق. وفتح رجاله بطنه ورموا أمعائه فى المنطقة التى لا تزال تَحملُ اسم "سبخة البردويل" وكان ذلك فى عام ١١١٨.

وكما انتقل بلدوين الأول من إمارة الرَّها إلى مملكة بيت المقدس، خلفه فى المملكة ابن عمه بلدوين لى بور الذى كان قد تولَّى إمارة الرَّها من بعده.

وكان بلدوين لى بور أو بلدوين الثانى هو الوحيد الذى بقى من كبار القادة الذين خرجوا بالحملة الصليبية الأولى. وفى يوم أحد القيامة ١٤ إبريل (نيسان) ١١١٨ تمَّ تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية، وسيداً أعلى لأمراء الإمارات الصليبية الأُخرى فى الرَّها وإنطاكية وطرابلس.

الفرما

كانت تقع على بعد حوالى ٣٥ كيلومتراً من مدينة بورسعيد الحالية. قريبة من شواطئ البحر الأبيض المتوسط وهى واحدة من حصون مصر القديمة. كانت ترابط بها دائماً قوة عسكرية، تتولَّى حراسة حدود مصر من هذه الناحية على الطريق الذى سلكه جميع الغزاة الذين جاءوا إلى مصر من الشرق.

فى عام ١١٥٠ نزل بها الفرنجة ثم أحرقوها، وأكمل حرقها عام ١١٦٣ الوزير "أبو شجاع شاور السعدى" فى صراعه ضِدَّ "ضرغام بن عامر". ومنذ ذلك اليوم لم تعرف العمران. ولا تزال بعض بقاياها موجودة.

■ القاهرة تنادى دمشق

كانت الخلافة الفاطمية عند قدوم الصليبيين فى حالة من الفوضى، والاضطراب، دخلت بها فى مرحلة الأفول والسقوط.

ولكن قاعدة هذه الخلافة وهى مصر كانت - دولة وشعباً - غير ضعيفة. بل كانت غنية بموارد الثروة التى تساعد على النصر فى الحرب، كما كانت غنية بالرجال، وهم عدة القتال. وكان الأسطول الفاطمىُّ الشهير ما زال فى مرحلة قوَّةٍ، فى وقت لم يكن الصليبيون يعتمدون على البحر إلا على مساعدة أساطيل البندقية وجنوة وبيزا. دون أن تكون بيدهم قوة بحرية خاصة.

ورغم فوضى الخلافة، وعدم تقدير الأفضل الجمالىِّ الحاكم الفعلىِّ لمصر عندئذ، وهو أرمنى الأصل، لأهداف الصليبيين، رغم ذلك فإن مصر لم تستسلم، بل قاومت، بقدر ما استطاعت. ولم تترك فلسطين فى الميدان وحدها.

ويقع قَدرٌ كبير من المسئولية عن سقوط فلسطين فى يد الصليبيين، على الحاكم المصرىِّ فى ذلك الوقت. ومع أن الأفضل حاول أن يحالف الصليبيين وهم أمام إنطاكية. فإنه حاول أن يدارى تقصيره فيما بعد، فخرج على رأس جيش كبير من مصر قاصداً فلسطين. ولكنه استعدَّ مُتأخراً، ووصَلَ إلى عسقلان بعد فوات الأوان. بعد سقوط القدسِ فى يد الصليبيين. ونَجَحَ الصليبيون فى إلحاق الهزيمة بهذا الجيش فى أغسطس (آب) ١٠٩٩.

وحَاصرَ الصليبيون عسقلان، ولكنها استعصتْ عليهم. وبَقيتْ المَدينةُ الفلسطينية الباسِلةُ قلعة حربية رئيسية للفاطميين فى فلسطين. وبَقيتْ كذلك حتى ١١٥٣ حينما استولى عليها بلدوين الثالث ملك بيت المَقدسِ. وعسقلان فى ذلك الوقت هى غزة فى العصر الحاضر، فقد كانت كل منهما شَوكةً فى جنب العدوِّ، هكذا كانت غزة منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧.

وفى عسقلان كانت تُوجد نُقطةُ الهجوم الفاطمىّ على الصليبيين فى الشام، فيما تلا ذلك من أعوام، وحتى سُقوطها في يد العدوّ، فقدْ تَوالتْ مَعاركُ الفاطميين ضد الصليبيين. وخلال أربع سنوات فقط خَرَجتْ من مصر ثلاث حملات كبيرة:

كانت الأولى فى عام ١١٠١ واشترك فيها ١١ ألف فارس و ٢١ ألفاً من المُشاةِ، وهُزِمَت فى الرملة.

وهُزِمتْ الحملة الثانية أيضاً فى الرملة عام ١١٠٢ واشترك فيها ٢٠ ألف مُقاتل من عساكر مصر، وقد أحرزت هذه الحملة عدة انتصارات ضد الصليبيين، ووصلت إلى يافا والقُدسِ، وكادت تستولى عليها، وتعرضت الحملة لأزمة، طلب عندها الأفضل من دقاق صاحب دمشق مساعدته، اعتذر دقاق عن ذلك، ولم يُقَدمْ المساعدة لجيش مصر، فكان هذا أحد أسباب هَزِيمته أمام يافا.

وفى يونيو (حزيران) ١١٠٤ تُوفى دقاق هذا، وتولى السلطة "الأتابك" - أى مربى الأمير - طغتكين، ولكنه وضع ابن دقاق الذى يبلغ من العمر عام واحد فى مركز أبيه.. ثم خلعه، وأعلن تنصيب عَمِه أرتاش. الذى كان يبلغ من العمر ١٢ سنة.

وليس غريباً فى ذلك الوقت أن أرتاش هذا هَرَبَ من دمشق. ولجأ إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وساعده ضد الحملة الفاطمية الثالثة التى خرجتْ من مصر عام ١١٠٥، فى وقت فَتَحتْ فيه وفاة دقاق الباب أمام التعاون بين دمشق والقاهرة، وهو ما جرى بالفعل، فقد طلب الأفضل مُساعدة دمشق، وفى هذه الأحوال أعرب طغتكين عن فرحه وسروره بأن يساعد المصريين، وفى أغسطس ١١٠٥ تَحَركَ الجيش المصرى إلى فلسطين، حيث انحازت اليه عساكر دمشق، بعد أن اجتازت إقليم شرق الأردن واخترقت النقب.

صحيح أن هذا التعاون بين دمشق والقاهرة لم ينقذ جيش مصر من هَزِيمتِه

الثالثة فى الرملة، ولكنه فتح الباب الوحيد الذى يؤدى إلى تخليص القُدسَ من مُغتصبيها، باب التعاون بين القاهرة ودمشق.

وقد اضطر طغتكين إلى عَقدِ هُدنة عام ١١٠٨ مع بلدوين الأول، ولكنه لم يتردد عام ١١١١ فى مُساعدةِ صور وإنقاذها من السقوط فى يد بلدوين.

ورغم الهزائم التى لقيتها جيوش مصر على يد الصليبيين، فإن مصر لم تتراجع ولم تستسلم. وواصل الأفضل مناوشاته ومعاركه ضد الصليبيين فى الأعوام التالية، وفى ١١١٠ وصلَتْ قوات مصر إلى أسوار بيت المقدس وكادت تَستولى عليها، وتواصلت هذه المُناوشات بعد ذلك، وحاول بلدوين الأول غزو مصر. وعاد خائباً خاسراً.

وعندما صَعَدَ بلدوين الثانى إلى عَرشِ بيت المَقدسِ فى ١١١٨، طلب من طغتكين حاكم دمشق تَجديد الهُدنة المعقودة بين الطرفين، وطلب طغتكين مُقابلاً كبيراً لذلك، لم يوافق بلدوين على مَطلبِ طغتكين وهدد وتوعد، فما كان من طغتكين إلا أن هاجم الصليبيين فى الجليل وطبرية، ثم تَوجه إلى عسقلان، وقاد قوة مشتركة من رِجالِه ورجال الأفضل، رابطت تِجاه قوات الصليبيين ثلاثة شهور ثم عاد كل من الفريقين إلى داره.

إذن، لقد امتدت الأيدى من القاهرة إلى دمشق، ومن دمشق إلى القاهرة، وكانت هذه بداية، مُجرد بداية صغيرة، ولكنها كانت نُقطة ضوء فى سِرداب مُظلم، فلم يكن كل حُكام الإمارات فى الشام فى مُستوى طغتكين، ولا فى كفاءته، ومَقدرته. ولم يكن خُلفاء طغتكين فى مُستواه.

ولا ننسى أن نقول إن طغتكين نفسه لم يكن شَخصاً مُستقيماً على طول الخط، لقد كان واحداً من أمراء ذلك الزَمان، حارب، وهادن، وتَحالف، وناور فى سبيل الاحتفاظ بالسُلطة.

لم تكن الجماهير العادية، البسيطة فى دِيارِ العـرب والمسلمين، غائبـة عمـا يجرى فى بلادها، لقد أضر بها العُدوان الأوربى، فـى مَصالحهـا، وفـى مُعاملاتهـا، وفى مُختلفِ مَظاهر حياتها.

وكانت هذه الجماهير تَرقب بقلق وضيق ما حققه المُعتدون الأوربيون من مَكاسب وانتصارات، بينما بقى الحكام والأمراء العرب والمسلمون مُتفرقين مُتخاصِمين، كان ما فعله الصليبيون من عدوان وما قام به هؤلاء الأمراء من رُدود أفعال يستفز الحَجَر، ولم تكن هذه الجماهير أحجاراً ولا خشباً مُسندة، ساءها ما حدث وحرك مشاعرها بعمق وعنف، فأرادت وقف تلك المَخازى، ووضع حد لها.

ومن حلب خرجت عام ١١١٠ وفود شَعبية فى موكب شَبيه بالمُظاهرة، وتوجهت إلى بغداد تَستنجد بالخليفة العباسى، وتدعوه إلى الجهاد، وتستغيث به أن ينقذها من الفساد الذى نشره المُعتدون الأوربيون.

ورددت جَماهير بغداد نِداءات وفود حلب، وخرج الجميع عند صَلاة الجُمعة، فمنعوا الخَطِيب من إلقاء خُطبته، وأنزلوه من فوق منبر المسجد، وحَطموا المِنبر، ومنعوا الناس من الصَلاة، وتكرر هذا الحادث مرتين كانت إحداهما فى مسجد الخَليفة العباسى "المُستظهر" نَفِسه الذى دَعته الجَماهير إلى إعلان الجهاد.

وتَصادف عندئذ أن الإمبراطور البيزنطى كان قد أرسل وفداً إلى السُلطان السلجوقى يدعوه إلى مُحاربة الصليبيين وطَردهم من البلاد، ودعا المُتظاهرون السُلطان السلجوقى إلى أن يفهم مَغزى هذا، ويخرج للجهاد ضد المُعتدين.

وتَحركَ الخَليفة العباسى فأرسل إلى السُلطان السلجوقى يدعوه إلى الجِهاد، وتَحركَ السُلطان، فوجه الدَعوةَ إلى حُكامه وأمرائه فى الولايات والإمارات، وتَصدى لذلك "مودود" أتابك الموصل، ودعا "رضوان" صاحب حلب إلى التَعاون

معه فرفض، واتفق مودود مع طغتكين صاحب دمشق ومعهما بعض الأمراء الأقل أهمية على التَعاون ضد الصليبيين.

ومع ذلك، كان كل من طغتكين ومودود تُساوره الشُكوك في نوايا الآخر، ولم يتمْ القِيام بعمل عَسكرى ذى أهمية ضد الصليبيين، وعاد كُلّ منهما إلى إماراته.

ولم يمضْ عامان على هذا الحادث، حتى كانت التَطورات قد فَرَضتْ على طغتكين الاستعانة بمودود، وتَجَمعتْ قواتهما عند طبرية، واستَطاعتْ أن تُلحق هَزيمة كبيرة بقوات بلدوين الأول، وتَقدمتْ نحو بيسان ونابلس.

وزاد من اضطراب الصليبيين فى هذا الوقت، أن الجيش الفاطمى تقدم من عسقلان نحو بيت المَقدس، وبلغ أسوارها، ولكن هذه القوات كانت صغيرة العَدد، قليلة البأس، ولم يكن فى قُدرتها الاستيلاء على القُدسِ، وعادت فى نفس الليلة.

وكانت هذه أول مَرة يُقاتل فيها الصليبيون على جَبهتين، ولكن الجَبهتين لم تكونا موحدتين. ولم تكن خِطتهما مُتناسقة، كانت كل جبهة تعمل بمُفردها، وتتحرك بعيد عن الأخرى.

وما لبثتْ قوات طغتكين ومودود أن عَادتْ إلى دمشق. وبقى مودود فى ضِيافة طغتكين بدمشق، ينتظر العودة إلى القتال، بينما أمر قواته بالانصراف.

وبعد ذلك بفترة قصيرة. ذهب مودود لصَلاة الجُمعة فى المسجد الأموى بدمشق. فقتله أحد أفراد "طائفة الحشاشين".

وفى الحال، أمر طغتكين بقتل قاتل مودود وإحراق جُثته، مما يوحى أن امير دمشق أراد أن يُخفى سراً كان يحمله ذلك "الحشاش" القاتل، ولعل هذا السر هو دور طغتكين فى قتل مودود، إذ خشى طغتكين من مودود، وظن فى حَماسِه للحرب ضد الصليبيين سِتاراً لتغطية هدف آخر هو الرَغبة فى السَيطرة على دمشق.

وتَحالف طغتكين مع الصليبيين ضد القوات السلجوقية الإسلامية، فى وقت كان الإمبراطور البيزنطى المسيحى يستعدى السَلاجقة المُسلمين ضد الصليبيين.

مما يؤكد أن الأمر لم يكن صِراعاً بين الإسلام والمسيحية، أو بين الهلال والصليب، بل كان في جوهره أمر مَصالح دنيوية أرضية خالصة، حاولت أن توجد لنفسها سِتاراً وعَباءة تنتزعها من ملكوت السماء.

وقد توفى طغتكين فى عام ١١٢٨، وخلفه ابنه "بورى" الذى احتفظ بأبى على طاهر المزدغانى وزيراً له، كما كان فى عَهدِ أبيه.

وكان أبو على هذا من أنصار طائفة الحشاشين والعاطفين عليهم، ووصل به الأمر فى التآمر معهم إلى حَدِ تَدبير مؤامرة لتَسليم دمشق إلى الصليبيين مقابل تسليم الصليبيين صور إلى هذا الوزير وطائفة الحشاشين معه.

وكَشفَ بورى هذه المؤامرة قبل تَنفيذها، فقتل الوزير، وأشعل النيران فى جُثمانه، كما قَتل خَلقاً كثيراً من طائفة الحشاشين.

■ وجاء عماد الدين..

فى ديسمبر (كانون الأول) ١١٢١ قُتل الوزير الفاطمى الأفضل، وهنا بدأ الفصل الأخير فى حكم الفاطميين لمصر، وسَيطرت على مصر خِلافات داخلية أعمق مما مر بها، بين الحاكمين وبعضهم. ولم تعد مصر تَهتم كثيراً بما يقوم به الصليبيون. وحينما انصَرفتْ مصر عنهم، تفرغ الفرنجة للشام.

ولم يكن الفرنجة آنئذ فى وضع أفضل، كانت خِلافاتهم قائمة ومُستمرة، وساعد هذا فى إضعافهم، ووقع "جوسلين كورتيناى" أمير الرها فى أسر أيدى الحُكام الأتراك، وكذلك وقع فى الأسر بلدوين الثانى ملك بيت المقدس، وافتدى نفسه عام ١١٢٤ بمائة ألف دينار.

وبعد اغتيال مودود أمير الموصل على يد أحد الحشاشين فى دمشق، ظَهرَ فى الموصل أمير آخر لا يقل شأناً عن سابقه فى الكفاح ضد الصَليبيين، وحاول

هذا الأمير إنشاء مُحور قوى يواجه خَطر الصليبيين، وقَتَلَ الحشاشون هذا الأمير فى عام ١١٢٦ قبل أن يُحقق حِلمَه بتحقيق نَصر حاسم ضد الصليبيين.

وفى هذه السنوات، لعبت إمارة الموصل دوراً مهماً فى الدَعوةِ إلى الوحدة، واستمرار النِضال ضد الفرنجة، وفى السنوات التالية، لعبت قِيادة هذه المدينة دَوراً أكبر وأهم. ومنها خَرجَ رجل شُجاع قوى وضع القواعد والأسس التى ستؤدى فيما بعد إلى تَحرير الشام وفلسطين من المُتعدين الفرنجة.

هذا الرجل هو عماد الدين زنكى، الذى أصبح منذ ١١٢٧ أتابكاً على الموصل والذى استكثر الفرنجة عليه أن يكون لشجاعته من أهل الشرق، فزَعموا أن أمه كُونتيسة أوربية جاءت إلى الشرق مع الحَملة الأولى، وأسرها أحد الأمراء وتَزوجها وأنجب منها هذا الفارس الشُجاع.

خلال فَترة قَصيرة، تمكن عماد الدين من الاستيلاء على عدد من الحُصون المُهمة من يد الصليبيين مثل جَزيرة ابن عمر، ونصيبين، والخابور، وحران.

وبسرعة، أصبح هذا الأمير هو العدو الرئيسى للمُلوك الفرنجة وأمرائهم، وأصبحوا يضعون لأعماله وتَحرُكاته ألف حساب.

وكان عماد الدين مع ميله إلى العُنف والقَسوة ضد أعدائه، كان يتحلى بقَدرٍ كَبيرٍ من الدَهاء والخُبث السياسى، وربما الغَدر السياسى أيضاً، فقد لجأ إليه عدة مرات، من أجل أن يُحقق أهدافاً رآها نبيلة ومشروعة، ذلك أن أى إنسان يعمل بالسياسة على أى مُستوى، لابد أن يكون عِنده قَدر من الانتهازية والخِداع، مهما عَلا صوته بالحديث عن المُثلِ والأخلاق. والسياسى الذى يتحدث كثيراً عن هذه القِيم، يكون عَادةً أقل الناس نَصيباً منها.

وقد استطاع عماد الدين زنكى بأساليب مُختلفة تَجمع بين الغَدر والحَرب، تَجميع عدد من الأمراء الآخرين حَوله، وفَرضَ عليهم التَحالف معه للوقوف ضد الصليبيين.

تابع الفرنجة أعمال عماد الدين بقدر كَبيرٍ من القلَقِ والخوف. وأزعجهم ما استطاع الرَجل تحقيقه من انتصارات فى وقت قصير، خاصةً ما قام بـه ـ بأساليبه المُختلفة ـ من فَرضِ نَوع من الحِصار "حِصن الخِلاف العربى والإسلامى" الذى كان سيفاً ودرعاً فى يد الصليبيين ساعدهم فى تحقيق انتصاراتهم، وفى حِماية وجودهم فى هذه المنطقة. ولو تَهدم هذا الحِصن لظهر الفرنجة عراة لا تَستر قوتهم الذاتية ضَعفهم، ولا يكاد تغطى انتشارهم فى المنطقة التى امتلكوها.

وأصبح الصليبيون فى هَم مُقيم. إنهم يخشون أن يتحد هؤلاء العرب المسلمون ويخرجوا عليهم.

وفى عام ١١٣٠ كان زنكى قد سيطر على شمال الشام حتى جنوب حمص، وفى العام التالى، عام ١١٣١ توفى بلدوين الثانى ملك بيت المقدس.

كانت وفاة بلدوين حدثاً غير عادى بالنسبة للفرنجة، وكانت دَليلاً على نهاية الجِيل القَديم من الرواد والفُرسان الفرنجة الذين قادوا الحملة الصليبية الأولى، وبدأ يظهر جيل آخر من الفرنجة بعضه كان ممن أقام فى الشرق وأبدى ميلاً نحو أساليب الحياة الشرقية، والبعض الآخر من الوافدين حديثاً الذين رفضوا التواؤم مع الشرق، وكانوا أميل إلى العُنف والاعتداء.

وينتمى ملك بيت المقدس الجديد "فولك الأنجوى" الذى خلف بلدوين إلى الحَرس القَديم، وسيكون آخر أفراد الجيل الأول من أمراء الفرنجة الذين اشتركوا فى هذه الحروب منذ بدايتها.

وكانت وفاة بلدوين فى ذلك الوقت تَعنى غِياب القائد والزَعيم الذى كان يلتف حوله الفرنجة فى بيت المَقدس، والرها، وطرابلس، وإنطاكية، وعلى العكس من ذلك، كان العرب على الجانب الآخر يجدون فى عماد الدين زنكى القائد الذى غاب من سَماء بلادهم من قبل.

وقد حَرَصَ عماد الدين على أن يعرف ويُتابع كل ما يجرى داخل صُفوف أعدائه. وبَثَ عيونه ورجال مُخابراته بين الفرنجة. ولم يترك فُرصة للخلاف بينهم إلا وحاول أن يستفيد منها، لدرجة أن إحدى الإمارات طَلَبَتْ منه أن يُساعدها ضد الفرنجة الآخرين.

وقد انشغل عماد الدين فترة فى الصِراع بين الخَليفة العباسى والسُلطان السلجوقى. وأتاح ذلك للفرنجة فترة راحة، وفرصة لالتقاط الأنفاس، ولكنه ما لبث أن تَمكن عام ١١٣٧ من أسر "ريموند الثانى" أمير طرابلس، كما حاصر الملك فولك الأنجوى ملك بيت المقدس بعد أن قتل عدداً كبيراً من قواتهم، وأطلق عماد الدين أسر فولك بعد أن دفع فدية مقدارها ٥٠ ألف دينار، وتنازل لزنكى عن واحدٍ من الحُصون المُهمة.

وفى السنوات التالية، ركز عماد الدين أنظاره على دمشق، فقد عَرَفَ أهميتها بالنسبة لهدفه الذى وضعه أمامه فى تلك الفترة من الكِفاحِ ضد الفرنجة، وآمن زنكى بأنه إذا وحَدَ دمشق مع الموصل والإمارات الأخرى، كان سهلاً عليه خلق وحدة أكبر، تَضمن له تَحقيق هَدَفه الأكبر فى القَضاء على الصليبيين.

وكانت دمشق عند ذاك تَتوق شوقاً إلى قائد من هذا الطِراَز، كانت فى انتظاره، وكانت معه على موعد، وكانت واثقة أنه آت، آت، مهما تأخرت ساعة المَجىء.

ولكن مَعين الدين أنر الحاكم الفِعلى لدمشق فى ذلك الوقت منع الحُلم من أن يتحقق، مَنع المدينة من احتضان فارسها، فوقفت تنتظره.

وكان زنكى يقاتل على أكثر من جبهة، ويتحرك على كل خُطوط القِتال، وعَلَمَ أن فرنجة الرَّها ضُعفاء، لقد توفى جوسلين كورتيناى، وخلفه ابنه "جوسلين الثانى"، ولم يكن الخلف كالسلف، كان الابن جَباناً، يفتقد المَيل إلى الشَجاعة، ويمتلك المَيل إلى المُجون وحب الملذات، فلما وجد الأمور فى الإمارة غير مُستقرة،

وهَجَمات العرب عليها مُستمرة هَجرَ الرها، وأقام بعيداً عنها، حتى يتمتع بلذاته.

وفى إمارة الرها حقَقَ عماد الدين زنكى نَصرَه الأكبر، فاستولى عليها فى عام ١١٤٤، وكانت أول إمارة أقامها الفرنجة فى الشرق، وبقيت فى أيديهم ٤٦ سنة، وبعد هذا النَصر حَمل عماد الدين لقب "الملك المنصور" وأطلق العرب المسلمون على هذا العمل "فتح الفتوح"، فقد أدركوا دلالته ومَغزاه، إذ تجدد الأمل لديهم فى الخَلاص من هذا الكَيان الأجنبى الدخيل، فقد حُرِمَ الفرنجة من عُمقهم المهم فى الداخل الذى فَصَلَ العراق عن الشام، وأصبح الفرنجة محصورين فى شَريط ساحلى على البحر الأبيض المتوسط.

وكان لخبر سُقوط الرها وقع الصاعقة فى أوربا الغربية، خشوا أن تكون هذه مُجرد بداية لإنهاء المَمالك التى أقاموها، بينما اهتزت مَعنويات الفرنجة الذين عاشوا فى الإمارات الصليبية الأخرى، وتَرَاجعت أحلامهم.

■ معين الدين أنر .. رجل عرف كيف يخون!

تَجرى الخِيانةُ فى بعض الناس مَجرى الدم فى عُروقهم، وتصبح حياتهم كلها خِيانة فى خِيانة، وتَقلِبَهم على أى وجه فلا يخرج من جوفهم إلا الخِيانة، ذلك أن كل إناء بما فيه ينضح.

ومع أن أمثال هؤلاء من الناس قَليلون، ونادرون، إلا أنهم موجودون، عَرفتهم الحياة من قبل، وتعرفهم اليوم، وفيما بعد، وقد كان معين الدين أنر واحداً من هذا الطراز، لقد كان الوجه الآخر من العُملة البشرية التى رسم على وجهها الأول عماد الدين زنكى.

لقد رَّغَبَ عِمادُ فى ضم دمشق إلى سلطته ووجد فى تَحريرها من حُاكمها فى ذلك الوقت خطوة ضَرورية نحو تَحرير القُدس.

وقد تَكفل معين الدين أنر بحرمان عماد من دمشق، وأغلق أبوابها فى وجهه، ومنعه من دخولها، ومن أجل ذلك تَحالف أنر مع الفرنجة، وزار البلاد التى اغتصبوها، وخضع لهم، ولم يدافع للعرب والمسلمين عن حق، ولم يؤازرهم فى الكِفاحِ من أجل أرضهم ووطنهم، ومن المفيد لنا أن نرصد سلسلة الخيانات التى ارتكبها أنر، لنتعلم منها أن عُمر الخيانة قَصير قَصير، وأما عُمر الخائن فأكثر قِصراً، لقد كانت خيانات أنر ومؤامراته مُجرد صَفحة فى مُسلسل طويل من النِضال العربى ضد الفرنجة، كانت صَفحة طارئة، وحَقيرة، سرعان ما طويت، ومضى صاحبها حاملاً اللعنات من مواطنيه المُعاصرين، ومن كل المواطنين الذين يحبون أوطانهم، أياً كان مكان هذا الوطن، بل ومن الفرنجة أنفسهم الذين عاملوه، حتى وهو يناصرهم باستخفاف وازدراء.

كان أنر يحوز حمص ويتبع أتابكية دمشق، وقد حَصَرَها عماد الدين زنكى مَرتين وفشل فى الاستيلاء عليها. فحاول أن يحصل عليها بوسيلة أخرى، عرض الزواج على الأميرة "زمرد" والدة أتابك دمشق، على أن يحصل على حمص.

ووقع الزواج فى يونيو (حزيران) ١١٣٨، ودخلت قوات زنكى حمص، وأغَاظَ هذا معين الدين أنر رغم أن عماد الدين مَنحه إقطاع أحد الحُصون والقِلاع المُجاورة له، وتَعبيراً عن عدم رضاه بهذا، ذهب أنر إلى دمشق وبقى فيها، وفى ٢٢ يونيو (حزيران) ١١٣٩ اغتيل الأتابك شهاب الدين محمود الذى تَزوج زنكى والدته، استولى أنر على المدينة، وقتل الجُناة. وسارع إلى استدعاء الأخ غير الشقيق لشهاب الدين وولاه حكم دمشق.

الأتابك الجديد كافأ أنر بتزويجه من أمه، ومنحه إقطاع بعلبك، وبقى أنر فى دمشق كى يدير شئون الحكم فيها ولم يذهب إلى بعلبك.

وعندئذ، حاصر زنكى بعلبك واستولى عليها، وتَقدم فى أواخر عام ١٩٣٩ نحو دمشق. وعَرَضَ على الأتابك أن يتنازل له عن بعلبك أو حمص مُقابل تَنازل الأتابك عن دمشق.

ولكن أنر دَفع الأتابك الصغير إلى عَدم قُبول هذا العَرض، حَاصرَ زنكى المدينة، وتوفى الأتابك ودمشق تحت الحصار، فوضع معين الدين ابن الأتابك المتوفى مكان أبيه.

كان أنر مُستعداً أن يفعل أى شىء فى سَبيل حِرمان زنكى من دخول دمشق والاستيلاء عليها، كان يخشى أن يحرمه من أى سُلطة فيها كما حرمه من حمص من قبل.

وفى سبيل ذلك لم يتردد أنر فى ارتكاب حطوة أثيمة، إذ قَررَ أن لديه من المُبررات الدينية والسياسية ما يدعوه إلى طلب المُساعدة من الفرنجة لدفع زنكى عن الاستيلاء على دمشق.

وأرسل أنر إلى الفرنجة بعثة برئاسة أسامة بن مُنقذ للمرة الثانية، إذ سبق أن أرسله من قبل، ورفض الفرنجة ما حَمله من عروض.

هذه المرة عَرَضَ مبعوث أنر على الفرنجة أن يُساعدوه فى منع زنكى من الاستيلاء على دمشق، مُقابل أن يدفع لهم كل شهر عشرين ألف دينار، وأن يُعيد إليهم حصن بانياس المُهم.

كان العَرض هذه المرة مُغرياً، أسال لُعابَ الفرنجة الذين كان من صالحهم رَدع زنكى، وتَقليل شأنه وإلحاق الهزيمة به، وفعلاً اجتمعت قوات فولك ملك بيت المقدس مع قوات أنر، واضطر زنكى إلى رَفع الحِصار عن دمشق.

وقام أنر بتسديد ما تَعهد به للفرنجة، سَلمهم مدينة بانياس حسب الاتفاق، أكثر من هذا، بادر أنر وبصحبته أسامة بن منقذ بزيارة الملك الفرنجى الأنجوى فى

قصره بعكا، ثم توجها إلى حيفا وبيت المقدس، وفي طريق عودتهما إلى دمشق اجتازا نابلس وطبرية.

أسامة بن منقذ

أمير عربى ينتمى إلى أسرة بنى منقذ التى كانت تَحكم "شيزر" خلال فترة الحُروب الصليبية. وقد نشأ أسامة بجوار مدينة حماه السورية على ضفاف نهر العاص، وعاش فيما بين ١٠٩٥ و ١١٨٨. وجمع فى حياته بين الأدب والفروسية والدبلوماسية، فقد تَنقل بين البيوت الحاكمة فى ذلك الوقت ما بين دمشق والقاهرة، وما بين أنر ونور الدين محمود والفاطميين. وقد أتيح له أن يعرف الفرنجة عن قُرب سواء فى ساحة المعركة أو فى ساحة الدبلوماسية. وكان أسامة قوى الملاحظة، فسجل انطباعاته عن الفرنجة وأحوالهم وتطوراتهم فى كتاب ممتاز عن هذه المرحلة هو كتاب "الاعتبار".

انتهز أنر وفاة زنكى، فاحتل بعلبك وأجبر أميرى حمص وحماه على أن يُعلنا تَبعيتهما لدمشق.

وفى عام ١١٤٧ بدأ أنر يتلقى اللطمات من الفرنجة، فلا يُقاطعهم، بل يتودد إليهم وهو خاضع ذَليل، ففى ذلك العام ثار ضده أحد ولاته التابعين له، وطلب هذا الوالى من الفرنجة فى بيت المقدس أن يساعدوه ضد أنر، مُقابل التنازل لهم عما تحت يده من قرى وحُصون على أن يمنحوه إقطاعاً آخر، تردد الفرنجة فى قُبول العرض، وبعثوا إلى حليفهم أنر يدعونه إلى أن يعيد الرجل إلى عمله.

تَجاسر أنر ورفض طلب الفرنجة، وكان أنر عندئذ يخشى نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى، وخشى أن يضع نهاية لتحالفه مع الفرنجة، فكتب إليهم يعاتبهم بلطف ويقول لهم إنهم خالفوا تقاليدهم، إذ ناصروا تابعاً لدولة صديقة ضد سيده، وكان الفرنجة أوعى منه بتقاليدهم ومصالحهم، والتزموا بمُساعدة ذلك الخارج ضد أنر.

والخائن لا ثمن له ولا قيمة، وفى مايو ١١٤٧ سارت قوات الفرنجة ضد قوات أنر، ووجد أنر نفسه مُضطراً إلى التماس المُساعدة من نور الدين محمود فى حلب، لبى نور الدين نداء أنر، وخَطَبَ ابنته لنفسه، عسى أن ينجح فى كَسبِ وده، وفى التَخفيف من عدائه. واستطاعت قوات نور الدين وقوات أنر استرداد الحصن الذى خَرَجَ صاحبه يطلب عون الفرنجة.

والخائن لا يعرف أبداً طريقاً للرجوع، ولا يعرف كيف يتوب، إذ بعث أنر إلى الفرنجة يعرض عليهم تَزويدهم بما يحتاجونه من طعام لهم، وميرة لخيولهم، فقالوا له لسنا فى حاجة إلى ذلك.

ورغم هذا، ظل أنر يُعامل حَليفه وزوج ابنته بحذر وحِرص شديدين، ولم ييأس من محاولة العودة إلى التحالف مع الفرنجة.

وعندما اكتمل وصول الحملة الصليبية الثانية إلى فلسطين فى ١١٤٨، كان أول عمل لها هو عَقد مجلس قَرَرَ الهجوم على دمشق، وخرجوا لهذا فعلاً، ولم يُصدق أنر هذا إلا وهو يرى جنود الفرنجة تَقترب من دمشق استغاث أنر مَرة أخرى بنور الدين.

ولما استعصت دمشق على السقوط فى يد الفرنجة، حاول أنر أن يتجنب وصول قوات نور الدين إلى دمشق، فقد كان - حتى فى هذه اللحظة - يرى جيش حلفائه من الفرنجة فى وضع حَرج، وخشى أنر أن يُدمر نور الدين جيش الفرنجة ثم يستولى منه على دمشق!

دفع أنر أموالاً للفرنجة حتى يقبلوا التراجع عن دمشق، ودخل فى مَعارك مُتفرقة معهم لعدة شهور، ولكنه ظل يخشى نور الدين، إن خوفه من نور الدين جعله يرحب بقبول الدخول فى مُفاوضات للصلح مع بيت المقدس.

وفى ١١٤٩ عقد أنر هُدنة لمدة سنتين مع فرنجة بيت المقدس. ولكنه مات - غير مأسوف عليه - بعد وقت قَصير، فى أغسطس (آب) من العام نَفسه.

وبموت أنر انفتح الباب لاستيلاء نور الدين على دمشق، فحَقَقَ الهَدف الذى ظل يراود والده طوال كِفاحه، وبدأ بذلك مَرحلةً جَديدةً فى الحُروب التى استعارت زوراً وبُهتاناً اسم الصليب.

"لقد حكمت مملكة الصليبيين فى القدس على نفسها بالدمار، عندما اعتمدت كلية على تنظيمها العسكرى المتفوق وشجاعتها. إن العمليات العسكرية الباهرة التى حملت الصليبيين إلى قلب مصر تخفى وراءها المشاكل الحقيقية التى حددت مصيرهم فى النهاية. هذه المشاكل مازالت قائمة اليوم بالنسبة لإسرائيل ..."

إن قراءة الحروب الصليبية بدقة عملية مفيدة فى هذا الوقت بالذات، فهي تساعد فى إحياء الأمل الكامن والعظيم، كما تساعد فى اقتلاع جذور اليأس الثقيل.

وقد استغرقت الحروب الصليبية حوالى قرنين، وتضمنت عدة حملات اتفق المؤرخون على حصرها فى ثمانى حملات، مع أن عددها أكثر من هذا.

والحروب الصليبية قصة طويلة، إنها قصة قرنين كاملين وأكثر، وهى مليئة بالأحداث والشخصيات والوقائع والمعارك.

وفى كل حدث، ووراء كل شخصية .. درس وعبرة.

ولأننا لن نستطيع هنا أن نتتبع كل هذا، ونروية.

فسنكتفى من القلادة بما يحيط بالعنق، ونتتبع الأحداث والوقائع والشخصيات التى تؤكد لنا حقيقة أن قوة العرب فى وحدتهم .. وأن ضعفهم من انقسامهم.

هذه عبرة الماضى .. وخبرة الحاضر ..

ودرس المستقبل .. الذى أثق أن الناشئة العربية ستعيه جيدا .. وتتعلمة، وتطبقه .. فتحقق النصر، اليوم، أو غدا، وبالتأكيد بعد غدا .. وليس غد ببعيد ..

عبد العال الباقورى

